كلمات روحية للحياة

الجزء السادس

القمص لوقا سيداروس

~~~~~~~

سبت الفرح

طقس حى

كنيستنا مجيدة حقاً، الإيمان فيها حى طالما هى تعى الإنجيل والبشارة المحيية، كما وعاها أباؤها القديسون وفسروها بالروح بالإلهام. وقدرة الكنيسة العجيبة هى أن تنقل خبر الإيمان ممتزجاً بخبرة القديسين وحياتهم خلال ما تسلمه الكنيسة لأبنائها من جيل إلى جيل.

ألحان الكنيسة ليست مجرد موسيقى، يقال عنها شرقية أو غربية، لأنها لا تنتسب إلى هذا العالم ولا إلى أساليب هذا العالم، بل هى مقدسة ولها قدرة على تقديس الفكر والذهن والعواطف. فأنت عندما تستمع إلى لحن كنسى يُقال بالروح، يثير فيك عواطف مقدسة، حتى ولو كنت تجهل معانى الكلمات أو قوة اللغة التى يقال بها.

لا يوجد شئ فى العالم يمكن أن يصل بك إلى هذه الحالة الروحية، لا توجد موسيقى تستطيع أن ترفع روحك إلى علو روحانى هكذا.

ألحان الصوم الكبير كفيلة أن توقظ فى الشعور أحاسيس الندم على الخطايا، وتدفع الإنسان إلى صدق التوبة والاعتراف.

ألحان أسبوع الآلام، من سمعها أو أمال أذنه الروحية إليها ولم يذرف الدموع؟!
~~~~~~~

أما ألحان القيامة، ففيها من البهجة والسرور الروحى ما يقيم الإنسان من التراب ومن قبور الخطايا. وهى كإشراق نور الرب فى فجر قيامته.

لقد ألهم الرب فى القديم داود، مرنم إسرائيل الحلو، كما يدعوه الكتاب. فقال مزاميره بالروح كقول الرب يسوع. ثم كان الهيكل إلهياً فى كل تفاصيله، إذ أعطى داود سليمان ابنه كل ما كان عنده بالروح بحسب المثال. وقال داود: «قَدْ أَفْهَمَنِي الرَّبُّ كُلَّ ذلِكَ بِالْكِتَابَةِ بِيَدِهِ عَلَيَّ، أَيْ كُلَّ أَشْغَالِ (أعمال) الْمِثَالِ» (١ أخ ٢٨ : ١٩)، بل أن الرب فى البداية، أَمَرَ عبده موسى رئيس الأنبياء أن يفعل كل شئ بحسب المثال الذى أراه إياه.

وهكذا كان فى الهيكل طقس للعبادة والسجود، والأعياد، وتقديم الذبائح، وطقس للتسبيح، وفرق المغنين أى المسبحين من جيل إلى جيل. ولم يكن يُسمح لأحد أن يأتى بتقدمة غريبة، غير المأمور بها فى حدود ما هو مكتوب. ولم يكن يسمح حتى للكهنة أن يأتوا بنار غريبة. ولم يكن يُسمح للكهنة أن يتصرفوا فى الذبائح بحسب هواهم، بل كانت تفاصيل تقديم الذبائح والتقدمات تحكم كل حركة فى الهيكل. ولم يُسمع فى التاريخ القديم أن قام فرد أو جماعة ليُدخلوا تسابيح غريبة أو مزامير اخترعوها أو طرائق تسبيح أو أغانى من خارج، وحاولوا إدخالها إلى العبادة فى الهيكل.

وهكذا ظلت كنيستنا، تسلم الأمانة الأرثوذكسية، من جيل إلى جيل بلا زغل (غش)، بدون إضافات أو حذف حسب استحسان الناس، فألحان تسبحتها، وألحان قداساتها وأعيادها ومناسباتها غاية فى العمق والأصالة، وتشهد لواضعيها من الآباء أنه حقاً كان فيهم روح الله، وأنها ملهمة من فوق، هكذا شهد كل الذين تذوقوا طعم الكنيسة حتى وهم من خارج الكنيسة.

نقول هذا للذين يقللون من شأن طقس الكنيسة وألحانها، إما عن جهل بالطقس أو اللحن. ولهؤلاء نقول إن طريقة العبادة هذه – بذات الطقس الحى والألحان الكنسية الروحية – هى التى أخرجت للعالم قديسين فى كل مجالات الروح، هى التى ربت أثناسيوس شماساً وقساً وبطريركاً حامى الإيمان – ومن المعروف أن قواعد الألحان وضعت فى أيامه – وهى التى زكَّت روح النسك فى ملايين النساك والعباد فى البرارى، هم يسبحون تسابيحها الروحية ساهرين الليل كله فحولوا الأرض سماء بالتسابيح.

وطريقة العبادة فى كنيستنا بطقسها وألحانها هى التى جعلت أرواح الشهداء تحلق إلى فوق، أعلى من مستوى الآلام التى لحقت بأجسادهم، فورثت الكنيسة طقس السهر من سهر شهدائها، وألحان الفرح إدَّخرتها لأجيال الأبناء ككنز تعب فى اقتنائه الآباء.

والطامة الكبرى التى قد يُنكَبُ بها الجيل، هو السطحية فى العبادة، والجرى وراء كل ما هو جديد، وكل ما هو سهل. فأنت ترى التهافت على ألوان من التراتيل، أوزانها وموسيقاها، أقل ما يقال عنها أنها عالمية أرضية، يرقص لها غير العارفين ويروجها من لا أصالة لهم ولا صلة لهم بروح الكنيسة، يخدعون بها عقول البسطاء، وهى أقرب إلى أغانى أهل العالم. البعض ينقاد لها عن جهل، وآخرون بروح عناد وإصرار، يودون أن يصيغوا الكنيسة بهذه الصبغة الغريبة على روحها شكلاً وموضوعاً. والبعض يرى أنها نوع من التطور، عندما يستوردون من الكنائس البروتستانتية تراتيل وأوزان وطرائق عبادتهم المختلفة، وهذا فى الحقيقة شئ محزن للغاية، مؤسف أشد الأسف. ألا يعلمون أن كنيستنا بما فيها من كنوز ليست فى عوز أو احتياج.

لقد تحللت الجماعات غير الأرثوذكسية من كل ما هو أصيل، من كل طقس أو التزام، فماذا كانت النتيجة؟ هل أخرجت للعالم قديسين، وهل بنت نفوس تابعيها كما عاشت كنيستنا؟ يكفى أن نضع هذه الحقيقة شاهدة.

إن على الآباء والخدام فى الكنيسة فى أيامنا هذه تقع أعظم المسئولية، فى حفظ الأمانة وتسليمها كما تسلمناها. الأمانة هى أن تسلم الشئ كما هو عليه.. سيُدان أمام الله كل من لا يوجد أميناً.

الكنيسة، إيمانها، ومعتقداتها، طقسها، وألحانها كلها أمانة. وصوت الرب يقول: «كُنْ أَمِينًا إِلَى الْمَوْتِ فَسَأُعْطِيكَ إِكْلِيلَ الْحَيَاةِ» (رؤ ٢ : ١٠)

كلمات روحية للحياة

الجزء السابع

القمص لوقا سيداروس

سبت الفرح أو سبت النور.. هكذا تدعوه الكنيسة، وهى تسمية تقليدية إيمانيّة مُعبرّة، لأنه فيه تحول حزننا إلى فرح كقول الرب، بموته المحيى على الصليب لأجل خلاصنا، «أَنَّهُ إِنْ كَانَ وَاحِدٌ قَدْ مَاتَ لأَجْلِ الْجَمِيعِ، فَالْجَمِيعُ إِذًا مَاتُوا» (٢كو ٥ : ١٤)، وقد وفَّى الديون عنا، وقد محا صك خطايانا الذى كان ضداً لنا وقد رفعه من الوسط مسمراً إياه بالصليب، وقد جرّد الرئاسات والسلاطين الروحية من قوتها وسطوتها وسلطانها، وكسر قوة الظلمة المتملكة على جنس البشر وأشهرهم جميعاً جهاراً فى وسط نهار صليبه ظافراً بهم فيه.

فساعتها أظلمت الشمس إذ غطى عليها نور الصليب، وصار نور شمس البر سبعة أضعاف كقول إشعياء فصيح الأنبياء، نعم صارت ظلمة على الأرض كلها من الساعة السادسة حتى الساعة التاسعة، كانت «هذِهِ سَاعَتُهُمْ وَسُلْطَانُ الظُّلْمَةِ» (لو ٢٢ : ٥٣).. فلما أكمل الرب القضية عنا، مات الموت، وملكت الحياة على الصليب «الرب قد ملك على خشبة» كقول المزمور(٩٦ : ١٠). وانتهى سلطان الظلمة، وعاد إشراق نور شمس البر الذى حجبته الخطايا، فانشق حجاب الهيكل إلى اثنين من فوق (أى من ناحية الله) إلى أسفل (أى ناحية الإنسان). وكمل قول النبى: «وَلَكُمْ أَيُّهَا الْمُتَّقُونَ اسْمِي تُشْرِقُ شَمْسُ الْبِرِّ وَالشِّفَاءُ فِي أَجْنِحَتِهَا» (ملاخى ٤ : ٢). حقاً قال القديس بولس الرسول: «لأَنَّكُمْ كُنْتُمْ قَبْلاً ظُلْمَةً، وَأَمَّا الآنَ فَنُورٌ فِي الرَّبِّ» (أف ٥ : ٨).

هو إذن سبت الفرح الروحانى، الذى ما بعده فرح، وهو سبت النور الحقيقى الذى ينير كل إنسان، وهو السبت الكبير الذى ارتاح فيه الرب من أعماله خالقاً خليقته الجديدة فى جسده الذى هو الكنيسة.

فى ختام يوم الجمعة العظيمة، حيث تجسد الكنيسة كل شئ، وتجعل أحداث الخلاص حاضرة معاشة، ليحياها كل واحد، لا بسمع الكلام فحسب، حيث القراءات ساعة بساعة من عتيق النبوات إلى تكميلها بالتمام فى بشارة الأناجيل، بل يجعل الطقس الحى هذه الأحداث أقرب إلى الحواس، أقرب إلى العيش، ويدخل الذين يمارسونه بالروح إلى السمائيات عينها.

صلوات الدفن ولحن جلجثة:

تُدفن أيقونة الصلبوت فى الورود، والحنوط، وكأن يوسف ونيقوديموس يشاركون الكنيسة فى كل أجيالها، ويرتفع لحن الجلجثة، معزياً عجيباً، يردد ذات التسبيحات الشاروبيمية، قدوس الله.. قدوس القوى الذى لا يموت.. الذى صُلب عنا ارحمنا.. ونحن أيضاً نسجد له صارخين قائلين: ارحمنا يا الله مخلصنا الذى صُلبت على الصليب وسحقت الشيطان تحت أقدامنا.. خلصنا وارحمنا.

ثم توضع شمعتان مثال الملاكين. واحد عند الرأس وآخر عند الرجلين. ثم يقرأون المزمور الأول والثانى والثالث الذى يحوى هذه النبوة الغالية: «أَنَا اضْطَجَعتُ ونِمْتُ، ثمَّ اسْتَيقظْتُ»، الذى هو موت المسيح وقيامته. ولكن الطقس يقول إن الكاهن يقرأ هذا المزمور علانية إلى كلمة «أَنَا إِضْطَجَعتُ ونِمْتُ» فقط. – يكمل المزمور «ثمَّ اسْتَيقظْتُ» فى ساعة القيامة فى قداس العيد –. ثم يقرأون سفر المزامير المائة والخمسين مزموراً التى حوت كل النبوات عن تجسد الكلمة الأزلى، وكل أعماله الخلاصية وآلامه وموته المحيى وقيامته الظافرة من الأموات.

وإذ كمّل الرب على الصليب كل شئ، وقال قد أُكمل، وبالأكثر ما هو مكتوب عنه فى سفر المزامير، إذ نطق مطلع المزمور «إِلهِي، إِلهِي، لِمَاذَا تَرَكْتَنِي؟» وهو بعد على الصليب، لذلك فنحن حينما نقرأ المزامير بالصلاة والطلبة أمام الذى قبل الآلام عنا، نؤمن أنه أكمل لنا كل ما هو للحياة والتقوى، وكل مواعيده الإلهية من نحونا قد حققها لنا بموته المحيى.

عودة إلى الكنيسة:

نعود إلى الكنيسة بعد نهاية جمعة الآلام، لنقضى أحلى وأجمل ليالى السنة الروحية فى الكنيسة، ليلة سبت الفرح، فنرى الكنيسة وقد خلعت عنها شارات الأحزان، وقد كساها رداء التسبيح المفرح، وتزينت

كعروس مهيأة لعريسها، جدران الكنيسة، وأبوابها، وأيقوناتها اكتست بزينة مقدسة. وتباشير أفراح القيامة تبدو ظاهرة لأول وهلة، لا تخطئها عين.

فحينما تدلف أقدامنا أبواب البيعة تسرى فى القلب بهجة عجيبة، تذهب بكل أوجاع الأحزان من النفس وتحول الحزن الذى جزناه طوال الأسبوع فى شركة آلام الرب المخلصة، يتحول الحزن هكذا إلى فرح روحانى لا يُنطق به ومجيد.

تبدأ العبادة، بأن يلبس رئيس الكهنة والكهنة برانسهم، ويقف رئيس الكهنة ويفتح ستر الهيكل ويقول المزمور الأخير استكمالاً لما قرأوه من ساعات قبل. والمزمور الأخير ١٥١ هذا نصه:

أَنَا كُنْتُ صَغِيرًا فِي إِخْوَتِي، وَحَدَثًا فِي بَيْتِ أَبِي، كُنْتُ رَاعِيًا غَنَمَ أَبِي.
يَدَايَ صَنَعَتَا الْأُرْغُنَ، وَأَصَابِعِي أَلِفَتْ الْمِزْمَارَ. أَلِّليلُويَاه.
مَنْ هُوَ الَّذِي يُخَبِّرُ سَيِّدِي، هُوَ الرَّبُّ الَّذِي يَسْتَجِيبُ لِلَّذِينَ يَصْرُخُونَ إِلَيْهِ.
هُوَ أَرْسَلَ مَلاَكَهُ، وَحَمَلَنِي مِنْ غَنَمِ أَبِي وَمَسَحَنِي بِدُهْنِ مَسْحَتِهِ. أَلِّليلُويَاه.
إِخْوَتِي حِسَانٌ وَكِبَارُ وَالرَّبُّ لَمْ يُسَرَّ بِهِمْ.
خَرَجْتُ لِلِقَاءِ الْفِلِسْطِينِيِّ فَلَعَنَنِي بِأَوْثَانِهِ.
فاسَتليّتُ سَيْفَهُ الَّذِي كَانَ بِيَدِهِ، وَقَطَعْتُ رَأْسَهُ عنه.
وَنَزَعْتُ الْعَارَ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ. أَلِّليلُويَاه.

ولهذا المزمور لحن خاص يؤدى به، والليلوياه المزمور غاية فى السمو والإبداع الروحى، شئ لا يوصف حقاً، ولكنه مذاقة عجيبة تمتع بها الكنيسة أحباءها، وتنعش نفوسهم بأريج القيامة ونصرة المسيح، لحن سمائى جميل ونغم ملائكى لا يعبر عنه.

أرجو بالرب أن يتمتع به كل قارئ، وإن لم تكن تعرفه، اطلبه استمع إليه، تعرف عليه، أعطِ روحك فرصة التمتع بشركة القديسين، فى عمق العبادة الرزينة فى الكنيسة، والأصالة فى التعبير عن نعم الخلاص.

تبدأ تسابيح الليلة، بترتيل هذا المزمور، وهو مزمور خلاص مقتدر صنعه الرب الإله بداود مختاره، وهو بعد فتى صغير. كان العدو جليات الفلسطينى رهيباً فى منظره، مخيفاً فى هيئته، طوله ستة أذرع وشبر (حوالى ٣ متر). ملابسه الحربية مفزعة يكفى أن يضيف الكتاب أن رمحه الذى بيده كان كنول النسّاجين، ضخامة مفزعة. بينما داود، كان فتى صغيراً، غير متدرب فى الحروب، وهو على ما يبدو راعى غنيمات صغيرة. لا يملك ظاهرياً شيئاً من القوة. كان العدو المخيف يصعد أربعين يوماً يعيِّر صفوف الله الحى، ولم يكن أحد يجرؤ أن يقترب إليه. ولما سمع داود هذا التعيير، قال: «مَنْ هُوَ هَذَا ٱلْفِلِسْطِينِيُّ ٱلْأَغْلَفُ حَتَّى يُعَيِّرَ صُفُوفَ ٱللهِ ٱلْحَيِّ؟» (١صم ١٧). واقترب داود واقتحم دوائر القتال، لا بسيف ولا برمح ولكن باسم رب الجنود، بقوة ليست من هذا العالم. وضرب الفلسطينى بحصاة من مقلاعه. فارتزت الحصاة فى جبهة جليات ووقع صريعاً، فركض إليه داود واستل سيفه الذى كان بيده وقطع رأسه ونزع العار عن بنى إسرائيل.

القصة كلها بتفاصيلها، كانت رمزاً للخلاص الذى صنعه الرب يسوع المسيح مخلص العالم كله، الذى سحق الشيطان المتجبر (جليات الروحى) وبسيفه الذى قتل الجميع، قتله الرب.. بالموت داس الموت، وخلص شعبه من قبضته بجبروت يمين خلاصه، هكذا نزع العار عن شعبه (عار الشعوب الخطية). ما أجمل الرمز فى هذا المزمور، وما أكمل الحقيقة التى نعيشها بالمسيح الذى يقودنا فى موكب نصرته كل حين. على أثر موت جليات، اندحرت جيوش الفلسطينيين فارين وهاربين إذ انكسر جبارهم. وكان أن النساء خرجت من جميع مدن إسرائيل بالغناء والرقص بدفوف وفرح وبمثلثات، هو تسبيح تلقائى نابع من الفرح بالخلاص.

وهكذا إذ ينتهى رئيس الكهنة من ترتيل المزمور ١٥١ بباب الهيكل، أنه يلف سفر المزامير فى لفافة كتان بيضاء ويطوفون البيعة مسبحين بفرح الخلاص الحقيقى الذى صنعه الرب، قائلين بلحن شجى بديع:

+ فلنشكر، المسيح إلهنا، مع المرتل، داود النبي. لأنه خلق السموات، وجنودها، وأسَّس الأرض، على المياه.

+ هذان الكوكبان العظيمان، الشمس والقمر، جعلهما ينيران، في الفلك. أخرج الرياح، من خباياها، نفخ في الأشجار، حتى أزهرت.

+ أمطرا مطراً، على وجه الأرض، حتى أنبتت، وأعطت ثمرها. أخرج ماء، من صخرة صماء، وسقى شعبه، في البرية.

+ صنع الإنسان، كشبهه، وصورته، لكي يباركه. فلنسبحه، ونرفع اسمه، ونشكره لأن رحمته، كائنة إلى الأبد.

+ بصلوات، المرتل داود، يا رب أنعم لنا، بمغفرة خطايانا. بشفاعات، والدة الإله، القديسة مريم، يا رب أنعم لنا، بمغفرة خطايانا.

+ بشفاعات، كل صفوف الملائكة، يا رب أنعم لنا، بمغفرة خطايانا. مبارك أنت بالحقيقة، مع أبيك الصالح، والروح القدس، لأنك قُمت وخلصتنا.

وقد سألنى أحد الأحباء قائلاً: ما هو الغرض من لف سفر المزامير بالحرير ويرفعه الكاهن على رأسه ويطوف به البيعة هكذا؟ فأجبته قائلاً: لقد عاشت الكنيسة طوال أسبوع الآلام تتعزى بألحان المزامير وتتغذى من معانيها النبوية الفائقة للعقل من نحو آلام مخلصنا. فالذى قدم للكنيسة هذا الغذاء الروحى ألا يُلف بالحرير ويُرفع فوق الرأس ويُطاف به فى البيعة، تمجيداً وعرفاناً بالجميل وتكريماً لروح النبوة!!

حقاً إن كنيستنا مجيدة فى طقسها.

وبعد أن يطوفوا البيعة بالتسبيح والترتيل مع داود النبى، الحسن فى الترتيل، يجيئون إلى مكان التسبيح ويبدأون بتسبيح الهوس (التسبيح) الأول، وهو تسبحة موسى عبد الرب المكتوبة فى خروج ١٥. الواقع أن التسبحة اليومية على مدار السنة تبدأ بهذه التسبحة، تسبحة عبور البحر، تسبحة الخروف المذبوح، والفداء بالدم. تسبحة المعمودية وانكسار فرعون العقلى وغرقه فى مياه البحر، تسبحة الفصح أى العبور من العبودية إلى الحرية:

العبور من الموت إلى الحياة..

العبور من الظلمة إلى النور..

العبور من الجحيم وكور الحديد إلى الرحب وأرض الموعد..

العبور من الخوف والمذلة إلى الطمأنينة والنعمة..

إنها قصة الخلاص ذاتها، وهى رمز بديع لعمل إلهى صنعه المسيح بدمه على الصليب، إذ هو فصحنا الذى ذُبح لأجلنا.. وهو الذى عبر بنا من الموت إلى الحياة.. وخلص المؤمنين به من قسوة فرعون العقلى (الشيطان).

تعالوا نسبح الرب لأنه بالمجد تمجد..

الفرس وراكبه طرحهما فى البحر..

بالقطع انقطع ماء البحر..

صنع الرب طريقاً لشعبه – حديثاً كرّسه بالحجاب أى بجسده (أنا هو الطريق)..

شق البحر بالعصا – أى بصليبه صنع الخلاص.

الخلاص غير المتوقع صنعه الرب بيمينه المعتزة..

من فى الآلهة يشبهك، يا رب من مثلك!!

نزل إلى الجحيم

«فَإِنَّ ٱلْمَسِيحَ أَيْضًا تَأَلَّمَ مَرَّةً وَاحِدَةً مِنْ أَجْلِ ٱلْخَطَايَا، ٱلْبَارُّ مِنْ أَجْلِ ٱلْأَثَمَةِ، لِكَيْ يُقَرِّبَنَا إِلَى ٱللهِ، مُمَاتًا فِي ٱلْجَسَدِ وَلَكِنْ مُحْيىً فِي ٱلرُّوحِ، ٱلَّذِي فِيهِ أَيْضًا ذَهَبَ فَكَرَزَ لِلْأَرْوَاحِ ٱلَّتِي فِي ٱلسِّجْنِ، إِذْ عَصَتْ قَدِيمًا، حِينَ كَانَتْ أَنَاةُ ٱللهِ تَنْتَظِرُ مَرَّةً فِي أَيَّامِ نُوحٍ، إِذْ كَانَ ٱلْفُلْكُ يُبْنَى، ٱلَّذِي فِيهِ خَلَصَ قَلِيلُونَ، أَيْ ثَمَانِي أَنْفُسٍ بِٱلْمَاءِ. ٱلَّذِي مِثَالُهُ يُخَلِّصُنَا نَحْنُ ٱلْآنَ، أَيِ ٱلْمَعْمُودِيَّةُ. لَا إِزَالَةُ وَسَخِ ٱلْجَسَدِ، بَلْ سُؤَالُ ضَمِيرٍ صَالِحٍ عَنِ ٱللهِ، بِقِيَامَةِ يَسُوعَ ٱلْمَسِيحِ، ٱلَّذِي هُوَ فِي يَمِينِ ٱللهِ، إِذْ قَدْ مَضَى إِلَى ٱلسَّمَاءِ، وَمَلَائِكَةٌ وَسَلَاطِينُ وَقُوَّاتٌ مُخْضَعَةٌ لَهُ» (١بط ٣ : ١٨ – ٢٢).

المسيح نزل إلى الجحيم من قبل الصليب، نزل فكرز للأرواح التى فى السجن فى قبضة العدو، الشيطان روح الظلمة، ملك الخطية – دخل الموت إلى جميع الناس وبلا استثناء – لأنه أُغلق على الكل تحت الخطية، لقد قيل «مَلَكَ ٱلْمَوْتُ مِنْ آدَمَ إِلَى مُوسَى(أى قبل الناموس)» (رو ٥ : ١٤). وقيل عن الشيطان إنه رئيس هذا العالم، أُخضعت الخليقة له ليس طوعاً، وصارت الخليقة كلها تئن وتتمخض معاً.

جميع أرواح الأبرار من آدم إلى المسيح كانت تحت قبضته، محكوماً عليها إذ حصلت فى التعدى، وأغلق عليها فى دوائر الظلمة. الموت هو أجرة الخطية، والموت شمل الكيان الإنسانى كله جسداً ونفساً وروحاً. موت الجسد هو انحلاله ورجوعه إلى التراب الذى أُخذ منه. أما موت الروح والنفس هو انفصالها عن سر حياتها، وبُعدها عن مصدر وجودها، وانحجابها بالظلمة عن التمتع بالنور. هذا هو الموت الذى قاساه الأبرار بالأكثر.

صارت نفوسهم مقيدة تنتظر الانطلاق.. صارت أرواحهم ترزح تحت نير الظلم، رغم اشتياقهم للنور.. صاروا فى قبضة إبليس، مسجونة أرواحهم ومحروسة بقوات الظلمة، كما فى سجن محكم ومشدد الحراسة. الفرق بين أرواح الآباء، الأبرار والصديقون، وبين الأرواح الشريرة كان كمثل من تجمعهم أسوار سجن واحد، بعضهم ينتظر الإفراج والخلاص وآخرون محكوم عليهم بسجن مؤبد، لا خروج منه ولا رجاء ولا بصيص أمل فى النجاة.

هكذا كانت أرواح الصديقين تنتظر. لقد عاشوا فى الإيمان. لقد قضوا أيامهم فى الرجاء. قال عنهم القديس بولس الرسول وهو يستعرض حياتهم فى الإيمان: «وَمَاذَا أَقُولُ أَيْضًا. لأَنَّهُ يُعْوِزُنِي الْوَقْتُ إِنْ أَخْبَرْتُ عَنْ جِدْعُونَ، وَبَارَاقَ، وَشَمْشُونَ، وَيَفْتَاحَ، وَدَاوُدَ، وَصَمُوئِيلَ، وَالأَنْبِيَاءِ، الَّذِينَ بِالإِيمَانِ قَهَرُوا مَمَالِكَ، صَنَعُوا بِرًّا... فَهؤُلاَءِ كُلُّهُمْ، مَشْهُودًا لَهُمْ بِالإِيمَانِ، لَمْ يَنَالُوا الْمَوْعِدَ» (عب ١١ : ٣٢ – ٣٩).

فى الإيمان مات هؤلاء أجمعون، وهم لم ينالوا المواعيد، بل من بعيد نظروها وصدقوها وحَيوْها وأقروا أنهم غرباء ونزلاء على الأرض.

نــزل إلــى الجحيــم:

هذا هو عمل المخلص، وهذا هو يوم الخلاص العتيد. استمع إلى إشعياء الإنجيلى يصف كيف يُخلِّص الرب نفوس المحبوسين فى الجحيم «أَنَا الرَّبَّ قَدْ دَعَوْتُكَ بِالْبِرِّ، فَأُمْسِكُ بِيَدِكَ وَأَحْفَظُكَ وَأَجْعَلُكَ عَهْدًا لِلشَّعْبِ وَنُورًا لِلأُمَمِ، لِتَفْتَحَ عُيُونَ الْعُمْيِ، لِتُخْرِجَ مِنَ الْحَبْسِ الْمَأْسُورِينَ، مِنْ بَيْتِ السِّجْنِ الْجَالِسِينَ فِي الظُّلْمَةِ» (٤٢ : ٦ ، ٧)، «وَفِي يَوْمِ الْخَلاَصِ أَعَنْتُكَ. فَأَحْفَظُكَ وَأَجْعَلُكَ عَهْدًا لِلشَّعْبِ... قَائِلاً لِلأَسْرَى اخْرُجُوا. لِلَّذِينَ فِي الظَّلاَمِ: اظْهَرُوا... إلى آخر الأصحاح» (٤٩ : ٨ – ٢٦).. كيف ينقلهم من ظلام الحبس إلى المراعى الخضر حيث «لاَ يَجُوعُونَ وَلاَ يَعْطَشُونَ، وَلاَ يَضْرِبُهُمْ حَرٌّ وَلاَ شَمْسٌ، لأَنَّ الَّذِي يَرْحَمُهُمْ يَهْدِيهِمْ وَإِلَى يَنَابِيعِ الْمِيَاهِ يُورِدُهُمْ».

«رُوحُ السَّيِّدِ الرَّبِّ عَلَيَّ، لأَنَّ الرَّبَّ مَسَحَنِي لأُبَشِّرَ الْمَسَاكِينَ، أَرْسَلَنِي لأَعْصِبَ مُنْكَسِرِي الْقَلْبِ، لأُنَادِيَ لِلْمَسْبِيِّينَ بِالْعِتْقِ، وَلِلْمَأْسُورِينَ بِالإِطْلاَقِ» (اش ٦١ : ١). بل أن المرنم يصرخ متضرعاً مخاطباً المخلص القادر قائلاً: «يَا رَاعِيَ إِسْرَائِيلَ، اصْغَ، يَا قَائِدَ يُوسُفَ كَالضَّأْنِ، يَا جَالِسًا عَلَى الْكَرُوبِيمِ أَشْرِقْ. قُدَّامَ أَفْرَايِمَ وَبِنْيَامِينَ وَمَنَسَّى أَيْقِظْ جَبَرُوتَكَ، وَهَلُمَّ لِخَلاَصِنَا. يَا اَللهُ أَرْجِعْنَا، وَأَنِرْ بِوَجْهِكَ فَنَخْلُصَ» (مز ٨٠ : ١ – ٣). ويعود مكرراً ذات العبارة بعد أن بلغ هُزء الأعداء مداه «أَعْدَاؤُنَا يَسْتَهْزِئُونَ (بنا) بَيْنَ أَنْفُسِهِمْ. يَا إِلهَ الْجُنُودِ أَرْجِعْنَا (إلى الفردوس – إلى حالتنا الأولى –)، وَأَنِرْ بِوَجْهِكَ فَنَخْلُصَ (نور القيامة)» (مز ٨٠ : ٧). ينتهى المزمور متوسلاً فى ثقة الرجاء، المتحرق شوقاً إلى الحياة باسم ابن الله «أَحْيِنَا فَنَدْعُوَ بِاسْمِكَ. يَا رَبُّ إِلهَ الْجُنُودِ، أَرْجِعْنَا. أَنِرْ بِوَجْهِكَ فَنَخْلُصَ» (مز ٨٠ : ١٨ ، ١٩).

من يستطيع أن يصف شوق المحبوسين إلى يوم الانطلاق وساعة الافراج.. شئ لا يعبر عنه!!

دهور من الظلمة، والسجن كل يوم يكتظ بالمحبوسين، ولكن لم يضعف رجاء القديسين ولم يخشوا سلطان الظلام، إذ لم يذعنوا له وهم فى الجسد ولا أطاعوه بالإرادة، إذ كان ناموس الله مسرتهم فى داخل أرواحهم، ولو أن ناموساً آخر كان يعمل فى أجسادهم يسبيهم سبياً كقول الرسول بولس (رو ٧ : ٢٣).

لقد قيل عن مخلصنا الصالح إنه «خَرَجَ غَالِبًا وَلِكَيْ يَغْلِبَ» (رؤ ٦ : ٢). كيف نزل إلى أقسام الأرض السفلى كقول الرسول؟ بأى جَبَرُوت وقوة واقتدار إلهى. فزعت الأرواح الشريرة فى أيام تجسده وهو قد أخلى ذاته آخذاً شكل العبد، والأرواح النجسة حين رأته خرت وارتعدت «وَهِيَ تَصْرُخُ وَتَقُولُ أَنْتَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ. فَانْتَهَرَهُمْ وَلَمْ يَدَعْهُمْ يَتَكَلَّمُونَ (ينطقون)» (لو ٤ : ٤١). فماذا كان حالهم، إذ نزل إليهم إلى حصون سجن الظلام؟

تزعزت أساسات عتب الهيكل عندما سمع إشعياء تسبيح الشاروبيم حول الرب الجالس على كرسيه العالى فى هيكله. فماذا حدث عندما اقتحم الرب الغالب أسوار سجن الموت، الذى داس المعصرة وحده، وانتقم نقمة جبارة من قتَّال الناس، نزل فتزلزلت الأرض، تشققت القبور، انهارت متاريس النحاس وأبواب الحديد، التى هى رمز لقبضة الشيطان وسلطان الظلام.

من يبشر المسبيين؟ جاء العريس، الختَن الحقيقى. لم يكن للموت سلطان أن يمسكه.. اعتدى الموت على الحياة بغير وجه حق.. اعتدى الموت على غير المائت.. شوكة الموت حاولت أن تؤذى غير الخاطئ فانكسرت.

غرسوا فى جبينه إكليل شوك، وحسك انبتته الأرض بالخطية.. رضى أن يحمل وخز الشوك فى جسده ولكن هو غير مجرب بالشرور، وليس فيه خطية. رئيس هذا العالم له فى كل واحد شئ، أما المسيح وحده فقال: «رَئِيسَ هذَا الْعَالَمِ يَأْتِي وَلَيْسَ لَهُ فِيَّ شَيْءٌ» (يو ١٤ : ٣٠).

يوم النقمة قد جاء.. يوم الرجوع إلى الفردوس قد أشرق.. يا للفرح العجيب عندما أشرق الرب بوجهه على أبينا آدم وأمنا حواء.. عاد الأصل يشرق على الصورة يجددها ويحييها.

انهضوا.. انهضوا أيها الآباء والصديقون والأبرار وكل من عاش ومات على الرجاء. «انهضوا من بعد جلوسكم يا آكِلِي الخُبْزَ بالهُمومِ» (مز ١٢٧ : ٢).. «قُومِي اسْتَنِيرِي لأَنَّهُ قَدْ جَاءَ نُورُكِ (فقد جاء مخلصك)، وَمَجْدُ الرَّبِّ أَشْرَقَ عَلَيْكِ» (إش ٦٠ : ١).

لا يستطيع قلم أن يعبر عن المشاعر التى لاقى بها يعقوب أب الأسباط ابنه يوسف الذى كان معتبراً ميتاً، قال الكتاب: «وَلَمَّا ظَهَرَ لَهُ وَقَعَ عَلَى عُنُقِهِ وَبَكَى عَلَى عُنُقِهِ زَمَانًا» (تك ٤٦ : ٢٩). إن كانت هذه المشاعر البشرية لا يمكن أن يُعبّر عنها، فكم وكم تكون رأفات حنان وأحشاء مخلصنا، المصدر اللانهائى والمذخر فيه كل كنوز الحب، عندما أشرق بوجهه على قديسيه وأبراره المختارين وهم كانوا موتى بالخطايا، محبوسين فى الظلمة معدودين مع الهالكين.

وقع على عنقهم يقبل ويخلص، يفك من القيود وينجى من الأسر، الموت لا يوجد فيما بعد، الحزن والهم كلاهما مضى، لا ظلام ولا شبه ظلام، ولا فرقة ولا قطيعة، بل صانع السلام، صالح الأرضيين مع السمائيين، وجعل الاثنين واحداً. لا حجاب ولا حاجز، بل رفعه من الوسط مسمراً إياه على الصليب.

أى شكر يستطيع به القديسون أن يتقربوا إلى الله. إنه الشكر الذى يسبحون به إلى الأبد وإلى أبد الأبد، لأنه افتداهم بدمه واشتراهم بذبيحة نفسه وخلصهم وفكهم بجبروت خلاص يمينه.

بهذه الكلمات البسيطة نود أن نشير، مجرد إشارة إلى العمل الخلاصى المقتدر الذى لم تُعلن أسراره، إلا فى كلمات قليلة كتبها الرسل الأطهار كما أوحى إليهم، وترجمتها الكنيسة فى طقس ليلة سبت الفرح، التى إذا عشناها بالروح نستطيع أن ندرك الذى من أجله أدركنا المسيح.

بعد أن أكمل المسيح الفداء على الصليب، ومات بالجسد وانفصلت نفسه عن جسده، إذ لاهوته لم ينفصل قط لا من نفسه ولا من جسده. أنزلوه عن الصليب ووضعوه فى القبر الجديد الذى ليوسف الرامى الرجل القديس، أما النفس المتحدة باللاهوت فقد ظن الشيطان أنها كباقى البشر الذين فى حال موتهم فإنه يقبض على النفس ويستودعها سجن الأرواح، كصاحب سلطان، إذ أُخضعت البشرية نفسها له بطاعة الغواية ومخالفة وصية الله.

فلما هم الشيطان بالقبض على نفس ابن الله القدوس الذى بلا خطية، ظاناً أنه خاضع لسلطانه، إذا أُغلق على الكل تحت الخطية.. صار الشيطان متعدياً على المسيح البرئ بغير حق، وهنا صار الشيطان تحت وطأة دينونة عادلة، إذ صار متعدياً على الحق. وهنا سحقه المسيح وكسر شوكة الموت وسحق سلطان الجحيم. ويقال إنه كسر أبواب السجن ومتاريسه الحديدية والنحاسية (كرمز عن ما كان حادثاً روحياً إذ أن الشيطان كان بقبضة قوية يحجز الأرواح فى حبسه كصاحب ولاية على البشرية الساقطة فى يده والمطيعة لغوايته).

ولما انكسر سجن الأرواح هذا الذى يقال له الجحيم، كما نقول فى القداس الإلهى عن ربنا إنه نزل إلى الجحيم من قِبل الصليب. فهو لم ينزل كسجين يضاف إلى قائمة الأسماء التى فى السجن، بل نزل كمخلص للمسبيين ومقيم الموتى ومُنهض الذين طال بهم الزمن فى انتظار الفادى والمخلص. فلما انكسر السجن انفلتت بعض أرواح الأبرار وقامت بالفعل لابسة أجسادها كعربون القيامة التى صنعها المسيح ابن الله.

وقد ترجمت كنيستنا المقدسة هذا الإيمان إلى ممارسة فى العبادة والتسبيح لصانع الخلاص ومقيم نفوسنا من الفساد. وذلك فى ليلة من أشهى ليالى العمر. بل قُل إنها السماء بعينها، يحياها المفديون كعربون حقيقى لملء القيامة فى المسيح يسوع. وهذا ما نحياه فى سبت الفرح فى طقس حى مشبع يملأ النفس عزاء وسروراً.

فما أن مات المسيح وصنع الفداء حتى سرت الحياة فى جسد البشرية الميت. فموت المسيح محيى، لأنه بالموت داس الموت. لذلك تُحضِر الكنيسة فى هذه الليلة جميع النفوس التى حصلت على القيامة من الموت تحت الرموز والظلال فى العهد القديم، تحضرهم ليقوموا بالتسبيح كباكورة المفديين.. لقد تمتعوا بالخلاص قبل الأزمنة، هؤلاء صرفوا مقدماً من رصيد موت المسيح وقيامته الذى كان مخزوناً عند الله، وأُظهر لنا فى ملء الزمان بتجسد الكلمة الأزلى، وقد صار لنا بصليبه الحق فى بره الذى ستر به خطايانا.. وليس خطايانا فقط بل خطايا العالم كله. فموسى عبد الرب الذى قاد العبور العظيم بشعب الله وعمّدهم فى البحر الأحمر والسحاب. وصنع الفصح وعبر ملاك الموت فلم يمس الأبكار، يقف ليسبح تسبحته فى وسط الكنيسة.

فإن راجعتها جميعاً ستجدها قصص خلاص وقيامة من الموت بصورة مختلفة، بقوة إلهية فائقة واقتدار الله، يسندها إيمان الأبرار فى الله الذى يقيم من الأموات. وهكذا كأن الكنيسة تختزل الزمن وتُحضر جميع الذين ترجّوا الخلاص وتشهد لهم كيف نالوا.. قبل الأوان من الخلاص الأبدى الذى صنعه المسيح بالصليب.

هنا يبدو حقاً أن المسيح له المجد جمع كل شئ فى نفسه، ومنه وبه قد صار الكل، وهو رأس جسد الكنيسة سواء فى القديم أو الحديث لا فرق.

تفتح الكنيسة خورس التسبيح بإمام المسبحين داود حين يقف فى الوسط ويرنم مزمور الغلبة على جليات، الذى هو رمز للعدو المتجبر، الذى عيّر صفوف الله الحى، ليس لأربعين يوماً بل منذ البدء.

ومن بعدهم كل من نالوا عربون القيامة، فتأتى تسبحة الثلاثة فتية الذين حصلوا على حياة فى وسط الأتون وصارت النار عادمة القوة بالنسبة لهم. وحنة أم صموئيل التى أخذت حياة من مستودع ميت وسبحت قائلة: الرب يميت ويحيى.

وتقف أيضاً سوسنة العفيفة فتشهد كيف سيقت إلى الموت من قضاة الظلم أولاد اللعنة ونسل كنعان، ثم كيف تخلصت ونالت حياة كأنها قيامة على يد دانيال النبى. وهكذا باقى أبرار العهد القديم كحزقيا الملك الذى بعد أن صدر حكم موته عاد فحصل على حياة جديدة خمسة عشر عاماً. ومنسى الملك بالتوبة كيف تجددت حياته..

«هؤُلاَءِ أَجْمَعُونَ، وَهُمْ لَمْ يَنَالُوا الْمَوَاعِيدَ، بَلْ مِنْ بَعِيدٍ نَظَرُوهَا وَصَدَّقُوهَا وَحَيُّوهَا» (عب ١١ : ١٣)، نالوا عربون القيامة قبل الأزمنة.

وكأنَّ الكنيسة فى هذه الليلة تعرض لأعضاء مكرمة ومقدسة فيها نالت عربون الملكوت وماتت على الرجاء، ولكنها حية بالمسيح، بل أحياها المسيح بموته وأقامها بقيامته.

الليلة إذن ليلة خلاص والتمتع بعمل الصليب، لكل من جاز الرجاء والإيمان، ولكل من يدعو باسم الرب مخلصنا.

ثم بعد أن تكمل التسابيح تنفتح أبواب السماء، لقد فتح المسيح باب الفردوس وأعاد آدم وبنيه، كما قال يوحنا الرائى: «وَإِذَا بَابٌ مَفْتُوحٌ فِي السَّمَاءِ» (رؤ ٤ : ١). فتضع الكنيسة سبع منائر ويكون القسوس جالسين على كراسيهم على رسم الطغمة السمائية المؤلفة من الأربعة وعشرين قسيساً. ويُرفع البخور من المجامر كما وُرد ذكر ذلك فى السماء. ويُكرر السجود متواتراً كما قدمت القوات السمائية سجودها للجالس على العرش.

أما ألحان هذا اليوم فهى تسرى فى الكنيسة كسريان الحياة ذاتها وهى تتحول من حزن الآلام إلى نصرة القيامة وفرح القيامة وهى أشبه بانقشاع الظلمة وبزوغ الفجر.

فهيا نحيا بالروح الواحد مع جماعة القديسين الذين أشرق الرب عليهم.. هيا نعى تسبيحهم وما حوى من عناصر الإيمان والرجاء الذى به.

مسكين هو الإنسان الذى لا يتنعم بهذا الميراث الغنى الذى هو شبع الروح ونعيم الفردوس الجديد.

الهوس الثالث (تسبحة الثلاثة فتية القديسين)

يقرأون فى نبوة دانيال النبى فى الأصحاح الثالث قصة الثلاثة فتية القديسين وهى من أعجب قصص الخلاص. كما شهد بذلك الملك الوثنى نبوخذنصَّر قائلاً: «لَيْسَ إِلهٌ آخَرُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنَجِّيَ هكَذَا» (دا ٣ : ٢٩).

وهذه القصة تحوى أقوى مقومات وركائز الخلاص:

١- الخلاص بالإيمان بالله والتمسك باسمه، مهما بلغ تهديد العالم وتجبر رئيس هذا العالم المشبّه بنبوخذنصَّر، إذ حمى غضبه جداً وأمر أن يُحمَّى الأتون حتى صار تسعة وأربعين ذراعاً، أى سبعة أضعاف، وهو أقصى ما تصل إليه قوة الموت وطغيان الشيطان. ولكنّ التمسك بالله كان سند الثلاثة فتية.

٢- حياة الطهارة التى عاشها الثلاثة فتية القديسين – رغم كونهم أسرى حرب – ولكن عدم خضوعهم وعدم قبولهم لمفاهيم العالم وحفظ أجسادهم من الدنس، فلم يتنجسوا لا بالمآكل ولا بالخمر ولا بالزنى، الذى كان العرف السائد فى قصر الملك، بل تمسكوا بالصوم وأعمال الإماتة والنسك، والتقديس جعلهم على مستوى العمل الخلاصى، واستحقوا أن يعاينوا ابن الله فى وسط أتون النار، والواقع أنهم رأوه وعاشوا معه قبل أن يدخلوا الأتون، إذ قالوا للملك: «هُوَذَا يُوجَدُ إِلهُنَا الَّذِي نَعْبُدُهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنَجِّيَنَا». وهذه الكلمة تعنى أنهم أشاروا إلى غير المنظور بالنسبة للملك ورؤسائه، أما هم فكانوا ينظرونه بعين الإيمان ويلمسون حضوره، لذلك قالوا للملك: «لاَ يَلْزَمُنَا أَنْ نُجِيبَكَ عَنْ هذَا الأَمْرِ»، إذ حسبوا أن إلههم يدافع عنهم وهم صامتون كقول موسى رئيس الأنبياء.

٣- الخلاص أولاً وأخيراً كائن فى حضور الله، فى نزوله لينجى ويخلص ويحول الواقع المادى المخيف إلى نصرة، ما بعدها نصرة. وكم تختلف طرق الله فى الخلاص عن طرق الشر، إذ تأتى على غير توقع من البشر، فلم يطفئ الله نار الأتون ولم يُهلك الملك العاتى، ولم يغير شيئاً من الواقع الذى يبدو لا مفر منه.. أبقى كل شئ، وجاء فى وسط الأتون.. فصار الفتية يتمشون معه، فى حضرته، فى عزة مجده وبهجة الوجود فى قربه.. تجاوزوا الواقع، رفعهم إلى السماء، فسبحوه ومجدوه بكل أنواع التسبيح.. بل أشركوا الخليقة كلها فى تسبيحه.

٤- كانت نار الأتون شديدة لدرجة أنها أهلكت الرجال الذين ألقوا الثلاثة فتية فيها.. بينما لم تأت رائحة النار على الثلاثة فتية الأطهار.. وهذا هو العجب.. صارت النار بلا قوة.. وهم عاشوا فى وسطها. لم تغلب النار قوة الحياة التى فيهم.

هذا واقع لابد أن ندركه.. أن نحيا فى العالم الملئ بنار شهوات مخيفة، ونار طمع وخبث وكذب وكل أنواع الشرور، ولكن لا تأت رائحة النار علينا، ولا تقتل حياتنا، هذا هو الخلاص الذى صنعه المسيح – عمانوئيل، الله معنا – فى وسط أتون العالم، قائم من الأموات، غالب الجحيم بكل لهيبه، وكاسر شوكة الموت..

نجاة الثلاثة فتية كان عربوناً لخلاصنا.. فعلى نفس المستوى الإعجازى يخلص الرب أولاده وينجيهم وينقذهم من هذا العالم الشرير.

وعلى ذات المستوى الإعجازى تعيش الكنيسة بالمسيح القائم فى وسطها، تُسبِّحه وتمجده وتزيده علواً لأنه جعل أبواب الجحيم لا تقوى عليها. ثم انظر كيف تعبّر الكنيسة عن كل هذا فى ليلة الخلاص هذه، التى فيها نزل الرب إلى الجحيم وسبى سبياً وكسر سجن الأرواح، تعبّر عنه الكنيسة بألحان ونغمات هى أغلى وأروع الحانها. لقد نزل الرب إلى الجحيم ليخلص الثلاثة فتية القديسين الذين آمنوا به واتكلوا عليه.. إن أروع ألحان الكنيسة، اختبرتها الكنيسة لتسبّح المسيح وتمجد الثلاثة فتية القديسين. فقد فاقت ألحان الهوس الثالث فى نغماتها وتأثيرها الروحى المنعش فوق كل قياس. فمن يصلى الهوس الثالث بإدراك روحى يعيش لحظات السماء وهو على الأرض.

٤- ثم أمر آخر جدير بالاعتبار، هو اتضاع الثلاثة فتية الأطهار الذى يفوق العقل، وهو الطريق الحقيقى للتمتع بالخلاص، فقد وضعوا أنفسهم فى آخر قائمة التسبيح، لم يكونوا يحسبوا ذواتهم أو كما قال القديس بولس الرسول: «لَسْتُ أَحْتَسِبُ لِشَيْءٍ، وَلاَ نَفْسِي ثَمِينَةٌ عِنْدِي، حَتَّى أُتَمِّمَ بِفَرَحٍ سَعْيِي» (أع ٢٠ : ٢٤).

نعم.. ألم يبذلوا نفوسهم للموت؟ فكل من يعى قوة الخلاص ويتمتع بها ويرتبط بالمخلص ارتباطاً روحياً حقيقياً يحيا حياة المسكنة بالروح والاتضاع كمثل مخلصه الوديع والمتواضع القلب. فالقديسون

جميعاً يربطهم هذا العامل المشترك، فليس بين القديسين من هو معتد بذاته أو مفتخر بذاته أو طالب مجد نفسه، أو راغب فى مجد العالم.

فإن كان الثلاثة فتية القديسين قد حظوا بهذا النصيب الفائق من الخلاص العجيب بسبب إيمانهم فى الله وتمسكهم بوصاياه. وقد أسلموا نفوسهم للموت محبة فيه وإكراماً لاسمه القدوس. وهم واثقون أنه ينجيهم وينقذهم.. فكم يكون الحال معنا نحن الذين نؤمن بما أقام يسوع ربنا من الأموات وأحيانا معه وأقامنا معه وأجلسنا معه فى السموات.

يا للفرح الذى يغمر نفوسنا فى هذه الليلة ونحن نتمتع بنصيبنا فى المسيح الذى داس الموت وسحق الشيطان.

تسبحة العذراء مريم

من من البشر يستطيع أن يصف العلاقة التى تربط العذراء مريم– السماء الثانية – بابنها وحبيبها ومخلصها؟

شئ يفوق الإدراك، فهى عرفته كما لم يعرفه بشر من قبلها أو بعدها.. فهى وحيدة فى طريقة معرفتها له.. إذ حملته فى أحشائها ومستودعها دائم البتولية، حملته كجنين، تسعة أشهر كاملة، وعلاقة الأم بجنينها شئ يصعب التعبير عنه.. فهى أحاسيس داخلية غاية فى العمق يعسر أن يُعبّر عنها بألفاظ. فإن كان هذا مع الأمومة الطبيعية فكم يكون مع العذراء المقدسة نفساً وروحاً، والمرهفة الحس الطاهر أكثر من الخليقة كلها؟ فهى إذن أمور عالية عن الفكر لأنها ارتفعت أكثر من السموات!!

فى إطار هذه العلاقة الفريدة تمتعت الأم بالخلاص الذى صنعه ابنها وحبيبها، وبينما كان العالم يفرح لقبوله الخلاص والابن معلق على الصليب يدفع بدمه الغالى ثمن خطايا العالم، كانت أحشاء الأم تلتهب بنار لا توصف عندما تعلقت عيناها بالذى عُلق على خشبة.

تسبحة العذراء التى نالت نعمة الخلاص من جذر الخطية المنحدر إليها من آدم، فقد سرى الموت بإنسان واحد واجتاز إلى جميع الناس، فهى قد ورثت عن آدم الطبيعة البشرية التى يعمل فيها الموت، ولكنها أدركت قبل كل أحد أنها حملت فى أحشائها آدم الثانى الذى فيه يقوم الكل، وإن كان بخطية واحد جعل الكثيرون خطاة فكم بالحرى ببر الواحد يجعل الكثيرون أبراراً.

العذراء هى أول من قطف ثمر الخلاص وأول من نطق تسابيح الخلاص بالروح قبل أن يُصلب الرب بل قبل أن يولد من بطنها. فقد سبحت تسبحتها والمسيح جنين فى بطنها. فهى به فيها أدركت الخلاص. وملؤها من الروح القدس الذى حل عليها وقوة العلى التى ظللتها. فاض فى قلبها كلام التسبيح لتمجد الذى افتدى البشرية بصليبه.

بدأت تسبحة العذراء القديسة تعظم الرب، وترفعه وتمجده لأنه صانع العجائب وحده. وقد أكمل كل مواعيده الصادقة. ثم أعلنت بهجة الخلاص بالروح قائلة: «تَبْتَهِجُ رُوحِي بِاللهِ مُخَلِّصِي» (لو ١ : ٤٧). فبهجة الخلاص روحية خالصة، وفرح الخلاص لا يعبّر عنه ولا يعرفه سوى الروحيين.

+ العذراء فى تسبحتها تُمجِّد الذى نظر إلى اتضاع أمته، فهى العبدة والأم معاً، وقد حباها الله بقدر من الاتضاع استطاعت به أن ترتفع أعلى من السموات «لأَنَّ كُلَّ وَمَنْ يَضَعُ نَفْسَهُ يَرْتَفِعُ» (لو ١٨ : ١٤). وبقدر الاتضاع يكون الارتفاع. فمن يقدر أن يصف مقدار ارتفاع السماء الثانية، وبهذا القدر هى متواضعة، أليست هى الحمامة الحسنة الوديعة؟!

+ «صَنَعَ قُوَّةً بِذِرَاعِهِ»، هكذا قالت الأم، لقد تأوه إشعياء فى القديم قائلاً: «لِمَنِ اسْتُعْلِنَتْ ذِرَاعُ الرَّبِّ؟» (إش ٥٥ : ١). فلم يكن من يفهم هذا الاستعلان، أو هذا الظهور فى الجسد، لأن الرب شمر عن ذراعه للخلاص، أى الحياة المخفية أُعلنت، ولكن لمن؟ أما العذراء القديسة أم الإعلانات السماوية فهى باكورة البشر فى استعلان غوامض حكمة الله، وهى أول من أحس بذراع الرب التى تخلص وتصنع قوة.

+ «عَضَدَ إِسْرَائِيلَ فَتَاهُ... كَمَا كَلَّمَ آبَاءَنَا. لإِبْرَاهِيمَ وَنَسْلِهِ إِلَى الأَبَدِ». المواعيد العظمى والثمينة التى اشتهى الآباء تكميلها، رأتها العذراء رؤى العين قبل أن يراها بشر أو يستجلى معناها ملائكة السماء.

فأول من أحس بنبض الخلاص كانت هى العذراء، وأول من نظر شمس البر كانت عيناها الطاهرتان، وأول من قبِل الابن متجسداً للخلاص كانت هى، وأول من احتضنته وحملته على ذراعيها كانت الأم القديسة فى كل شئ، ومنها صار فى متناول كل من يطلبه ويدعوه باسمه، وكل من أراد أن يأخذه ويحتضنه أخذه من يدها الطاهرة.

طوبى للأجيال التى تطوبها.. بل ستطوبها جميع الأجيال إلى مجئ الرب.

صلاة زكريا الكاهن

«مُبَارَكٌ الرَّبُّ إِلهُ إِسْرَائِيلَ لأَنَّهُ افْتَقَدَ وَصَنَعَ فِدَاءً لِشَعْبِهِ، وَأَقَامَ لَنَا قَرْنَ خَلاَصٍ فِي بَيْتِ دَاوُدَ فَتَاهُ... خَلاَصٍ مِنْ أَعْدَائِنَا...» (لو ١ : ٦٨ – ٧٩). هذا التسبيح النبوى من فم زكريا الكاهن، الذى انفتح فاه بعد أن بقى صامتاً أكثر من تسعة أشهر، هذا التسبيح العالى نستطيع أن نشتم فيه رائحة العذراء القديسة وروحها.. لقد سبحت العذراء تسبحتها فى بيت زكريا الكاهن عندما دخلت وسلمت على أليصابات.. كان يوحنا المعمدان جنيناً ابن ستة أشهر فى بطن أمه، حين رقص أمام تابوت العهد الجديد بابتهاج، فى هيكل الكهنوت القديم أى أحشاء اليصابات العاقر.. وقد تعزى الكاهن الشيخ وهو يستمع إلى أم الله تقول تسبحتها، وعندما نطق لسانه من بعد البكم كان صدى تسبيح العذراء مازال يرن ويحرك أوتار روحه، فجاءت لغته فى التسبيح وقد انطبع عليها نبرات صوت الأم والهيكل الجديد.

فهو يتكلم عن الخلاص، ويتكلم عن رحمة الله، وعهد الله المقدس والقسم الذى حلفه لإبراهيم.. أليس هذا روح تسبحة العذراء.

زكريا يستلهم أيضاً آخر ضوء من العهد القديم بفم ملاخى «وَلَكُمْ أَيُّهَا الْمُتَّقُونَ اسْمِي تُشْرِقُ شَمْسُ الْبِرِّ» (٤ : ٢) فيقول: «افْتَقَدَنَا الْمُشْرَقُ مِنَ الْعَلاَءِ لِيُضِيءَ عَلَى الْجَالِسِينَ فِي الظُّلْمَةِ وَظِلاَلِ الْمَوْتِ» الذى هو أيضاً قول إشعياء: «اَلشَّعْبُ السَّالِكُ فِي الظُّلْمَةِ أَبْصَرَ نُورًا عَظِيمًا. الْجَالِسُونَ فِي أَرْضِ ظِلاَلِ الْمَوْتِ أَشْرَقَ عَلَيْهِمْ نُورٌ» (إش ٩ : ٢).

كل هذا وشمس البر لم يكن قد أشرق جسدياً من العذراء، إذ أن هذا حدث فى بيت لحم بعد ستة أشهر.

زكريا الكاهن أيضاً تنبأ بالروح عن يوحنا كيف أنه يعطى الشعب معرفة الخلاص بمغفرة الخطايا.. وهو عمل الكرازة والمناداة بالتوبة وإعلان المسيح وتقديمه للعالم.

+ طوباك أيها الكاهن الشيخ الذى استحق أن يكون أباً لأعظم مواليد النساء.. طوباك يا من حفظت أمانة الكهنوت فى جيل ملتو ومعوج، وفى وسط الفريسيين المرائين والناموسيين والكهنة ورؤساء الكهنة، الذين سدوا آذانهم عن الحق بل وقفوا ضد الحق، بل صادروا تعليم المعلم الإلهى الحقيقى، بل

رفضوا مشورة الله من جهة أنفسهم، بل صلبوه وقبلوا أن يصير دمه عليهم وعلى أولادهم.. أما أنت يا كاهن الله العلى فقد صرت شاهداً أميناً، كما شهد عنك الروح أنك وزوجتك الشيخة الوقورة أنكما كنتما باريْن أمام الله سالكيْن فى جميع أحكام ووصايا الرب بلا لوم.

صلاة سمعان الكاهن

«الآنَ تُطْلِقُ عَبْدَكَ يَا سَيِّدُ حَسَبَ قَوْلِكَ بِسَلاَمٍ، لأَنَّ عَيْنَيَّ قَدْ أَبْصَرَتَا خَلاَصَكَ، الَّذِي أَعْدَدْتَهُ قُدَّامَ وَجْهِ جَمِيعِ الشُّعُوبِ. نُورَ إِعْلاَنٍ لِلأُمَمِ، وَمَجْدًا لِشَعْبِكَ إِسْرَائِيلَ». (لو ٢ : ٢٩ – ٣٢).

«كَانَ قَدْ أُوحِيَ إِلَيْهِ ... أَنَّهُ سيَرَى مَسِيحَ الرَّبِّ».. طوباه. فظل محبوساً فى الجسد منتظراً بالرجاء تحقيق الوعد الإلهى.. فلما نظر المسيح الإله المتجسد محمولاً على مركبة الشاروبيم الجديدة، تحمله العذراء على ذراعيها.. انفتحت عيناه الكليلتان.. فبنور الرب أبصر النور.

ولكن هل يستطيع أحد أن يرى الطفل الإلهى ولا ينجذب إليه ؟ حاشا.. أيستطيع سمعان الشيخ أن ينظره فقط ولا يحمله على ذراعيه؟ هل يكفيه مجرد الرؤيا؟ هل تشبع النفس الذى طال انتظارها قائلة كلّت عيناى من انتظار أقوالك؟ هل يشبعها مجرد الرؤيا؟

لقد حمله سمعان على ذراعيه من يدى العذراء الأم.. خلاص المسيح ليس للمتفرجين أو الناظرين من بعد.. المسيح جاء فى الجسد لكى نراه، بل ونلمسه، بل ونحتضنه، بل ونأكله أكلاً.. إننا ننجذب إليه بقوة لا تقاوم.. «لاَ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يُقْبِلَ إِلَيَّ إِنْ لَمْ يَجْتَذِبْهُ الآبُ» (يو ٦ : ٤٤).. «وَأَنَا إِنِ ارْتَفَعْتُ عَنِ الأَرْضِ أَجْذِبُ إِلَيَّ الْجَمِيعَ» (يو ١٢ : ٣٢).

+ فلما احتضنه واستنشق رائحة الحياة الأبدية فيه، فتح فاه بتسبحته التى صارت جزءاً ختامياً للتسبحة اليومية فى الكنيسة. بل أن الكاهن يحمل البشارة (كلمة الله) على ذراعيه ويطوف حول المذبح قبل قراءة الإنجيل ويقول نفس الصلاة: الآن تطلق... .

سمعان الشيخ رأى المسيح متجسداً وقال: «عَيْنَيَّ قَدْ أَبْصَرَتَا خَلاَصَكَ»، فهو إذن رأى الخلاص.. رأى الصليب، بل رآه علامة تُقاوم.. رأى علامة ابن الإنسان.

طوباك يا سمعان الشيخ، الكاهن الإنجيلى المؤتمن والأمين فى ترجمة كل كلمة، بل وكل حرف.. طوبى لعينيك اللتان أبصرتا الخلاص وامتلأتا من النور الحقيقى. وطوباك يا من اشتهيت أن تنطلق من سجن الجسد، فى زمان كان الجسد فيه هو كل رأس مال الناس.

قصة سوسنة ابنة حلقيا

تختم الكنيسة قصص الخلاص والطلبات التى حظت بالقبول لدى الله على مدى الأزمنة، والتى كانت عربوناً للتمتع ببركات الخلاص الأبدى الذى صنعه المسيح بصليبه. تختم هذه كلها بقصة عربون القيامة من الموت التى حصلت عليها سوسنة العفيفة، التى عاشت فى خوف الله وأُسلِمت نفسها للموت ظلماً، وفضلت أن تموت هكذا بالظلم وشهادة الزور على أن تسلم نفسها للهوان فى الخطايا.

سوسنة لم تخضع لسلطان الظلمة ولا إلى لحظة واحدة.. شيخان من قضاة الشعب بحسب الظاهر موّقران ومكرّمان جداً مُعلما الناموس، تبدو ظواهرهما مثل الصديقين. هما أقرب ما يكون للفريسيين فى أيام الرب، بل وللكهنة ورؤساء الكهنة. لبسوا ثياب التقوى، وكل رأس مالهم هو مجد الناس.. أما من داخل فكانا مملوئين عظام أموات وكل نجاسة!! والناس للأسف تحكم بظواهر الأمور.. فقد كان الحق مخفياً عن الأعين.

والشيخان – كل على حدة – كانا يمثلان ليس فقط على الناس، بل كل واحد على الآخر، كانت نيران شهوات وخطايا نجسة تلعب برأسهما. فى ذات الوقت إذ أسلما نفسيهما للشيطان، فالذى لا يتاجر فى الروحيات هو بالضرورة تاجر فى الجسدانيات. فلم يكن هذان الشيخان من الروح فى شئ، لقد حملوا مظهر رجال الله أما هما فكانا خادمين للشيطان.

فليرحم الرب كنيسته من أمثال هؤلاء..

+ عندما انقلبا راجعين وتقابلا، إذ كشفا أفكارهما لبعضهما – لم يقودهما هذا التصرف للخزى والتوبة، أو للحزن على الخطايا المستترة.. لم يكن الأمر هكذا.. بل كانا كتاجرين يتجران فى ذات السلعة، فقد استثمرا الشر بالأكثر فازداد رصيده لدى كل منهما.. بل جمعا عقليهما لتدبير خطط الشر، لقد تحالفا مع الشيطان.

كشف الخطايا إذا نبع من قلب نادم يحول الإنسان قديساً. أما عندما يكشف الأشرار أفكارهم بعضهم لبعض، فإن نار الخطايا تزداد اشتعالاً فيزدادون شراً على شر. فليُجنبّ الله أولاده مصائب الجلوس فى مجالس الأشرار، وليحفظ أولاده من مشوراتهم.

+ بينما كان الشيخان ينسجان حبائل الشر ويحكمان الفخ لسقوط الفريسة، كانت سوسنة العفيفة خالية الذهن، فصارت مثل العصفور فى فخ الصيادين. الشرير يتفكر على الصديق بالشر، ولسان حال سوسنة يقول: «أنا مثل خروف راضٍ يساق إلى الذبح».

على غير توقع وجدت نفسها فى فخ الشيطان.. هما شيخان مُصَدِّقان من الكل ولا يمكن أن تفلت من أيديهما.. أطبقت الظلمة حولها بلا مقدمات. ولكنها لا تملك شيئاً.. بل هى تملك كل شئ «رفعت عينيها إلى السماء وصرخت».. نظرت نحو السماء، وهو ناظر إلى كل شئ.. عيناه تخترقان أستار الظلام، هو ينظر شقاء المساكين وتنهد البائسين ويقول: «مِنْ أَجْل شَقَاءِ المسَاكِين وتَنَهُّدِ البَائِسِينَ الآنَ أَقُومُ، يَقُولُ الرَّبُّ، أَصْنَعُ الَخَلاصَ عَلانيةً» (مز ١١).

+ يتجبّر سلطان الظلمة، ويُداس الحق.. بل قد يُساق الحق إلى الموت ويُحكم على البرئ. قال ربنا يسوع المسيح: «هذِهِ سَاعَتُكُمْ وَسُلْطَانُ الظُّلْمَةِ» (لو ٢٢ : ٥٣). فإن كان سلطان الظلمة إلى ساعة، فسلطان النور والحق إلى قيام الساعة.. فالنور يضئ فى الظلمة فيبددها. هكذا سيقت سوسنة إلى الموت ظلماً.. وغطى الحزن جميع من حولها.

+ ولكن نبَّه روح الرب شاب اسمه دانيال.. هذه هى قيامة بحد ذاتها.. بينما ترزح نفوس الشيوخ تحت الظلام، وقد أظلمت قلوبهم وعقولهم وأسلموا ذواتهم بالكمال لروح الظلمة.. قامت روح دانيال متقوية بالرب ومتشبثة ومنتصبة للحق!! ولكن هل يقوى هذا الحدث الشاب على فطاحل الظلمة وشيوخ الظلام؟ هذا ما حدث بالفعل.. فضح كذبهما بالحكمة التى فيه.

+ فرح الجميع بالقيامة، تبدل الحزن إلى فرح.. نجت سوسنة من الموت، إنها قيامة حقيقية. أخذتها سوسنة من يد الرب عربون لحياة لا يعتريها الفساد. لم يكن فى سوسنة عيب الخطية هذه.. فاستحقت أن تتمتع بهذه القيامة المفرحة مع المسيح القائم من الأموات.

تسبحة موسى عبد الرب (الهوس الأول)

هى تسبحة العبور بالدم، تسبحة الخلاص التى سبحها شعب المفديين بعد عبور البحر الأحمر، وتُسبِّحها الكنيسة فى كل أجيالها على الأرض وهى تسبحة الكنيسة فى السماء كما رآها القديس يوحنا فى رؤياه.

فى ليلة سبت الفرح حينما نُسبِّح بهذه التسبحة، يكشف الروح النقاب عن سر الخلاص المصور فى أعجوبة عبور البحر الأحمر، كيف عبر المسيح إله موسى بشعبه وكنيسته فى ليلة الفصح، بدمه الذى صار علامة لا على كل بيت بل على كل نفس وقلب، وبعصاه أى بصليبه شق بحر الجحيم وعبَّر أولاده إلى أرض الموعد السماوى، وغرق ليس فرعون ومركبات مادية وفرسان بل كل قوى الشيطان وجبروته وكل طغيانه، سحقه المسيح بالصليب – سحق الشيطان، بالموت داس الموت وعبر بنا إلى جدة الحياة، وحررنا من عبودية إبليس ومحا الصك الذى كان علينا.

انتهت إلى الأبد أيام السخرة، والعمل فى طين الجسد واللبن ومذلة العبودية. أنهاه المسيح وحررنا بالحق.

لذلك كما أخذت مريم الدف بيدها والنسوة حولها يغنين بفرح تلقائى لما أبصروا فرعون يغرق وسلطانه يتبدد ويزول – حينئذ سبح موسى وجماعة بنى إسرائيل بهذه التسبحة قائلين:

تعالوا نسبح الرب لأنه بالمجد تمجد

يمينك يا رب معتزة بالقوة

يمينك يا رب حطمت العدو

من يشبهك فى الآلهة يا رب من مثلك

بذات الكلمات تسبح الكنيسة فاديها الحبيب فى مطلع تسابيح الخلاص فى هذه الليلة. ما أجمل اللحن الذى يقول: بالقطع انقطع ماء البحر والأعماق السحيقة صارت مسلكاً. فعلاً تهتز له أوتار الروح بطرب ونشوة روحية فيها نصرة إلهية بقوة وسلطان فوق سلطان.

أذكر أننا كنا نسبح بذات التسبحة ونحن داخل سجن المرج فى شهر كيهك (ديسمبر سنة ١٩٨١) وكان بيننا طبيب جاوز الخمسين من عمره ولم يكن له معرفة كثيرة بطقس الكنيسة وألحانها. فما أن سمع صوت التسبيح حتى جذب انتباهه فاقترب إلينا، وفجأة وجدناه يربط وسطه ويرقص فى وسط العنبر. لقد تجاوزت روح الرجل – إذ هزتها أنغام التسبيح – تجاوزت كبر السن والمركز، وتجاوز آلام السجن وأتعاب النفس وسرى الفرح فيه حتى رقص دون أن يدرى، كما رقص داود النبى أمام تابوت العهد بكل قوته وكما أخذت مريم أخت هارون الدف بيديها وصارت تغنى مع النسوة بفرح الخلاص وتسبيح الغلبة.

إن الفرح الروحى الحقيقى قوة تسرى فى الكيان، وفرح لا ينطق به، فإن كان بنو إسرائيل قد لمسوه بحسب كيانهم الجسدانى وما هو مرئى وملموس، فطربت له أجسادهم وراحوا يرقصون بدفوف وغناء، فكم وكم يكون الفرح الروحانى المنبعث من الخلاص الحقيقى الذى صار فينا ولنا بالمسيح يسوع ربنا يبعث فينا سروراً ونعيماً وشبعاً واكتفاء ولذة لا تُدانيها لذة جسدية على الإطلاق.

التسبحة الثانية لموسى عبد الرب «صلاة النشيد»

فى هذه التسبحة توجد كل مواعيد الله من جهة الخلاص، يذكر موسى إحسانات الله التى تغطى كل عصيان الإنسان، من جهة الإنسان، فهم جيل معوج وملتوى، وشعب جاهل وغير حكيم. جازوه بدل الخير شراً. أما من جهة الله فهو إله أمانة وعدل وحق.

يعدد فى هذه التسبحة توالى إحسانات الله التى لا حصر لها فى رحلة الخلاص مدة الأربعين سنة. أما نهاية هذه التسبحة فهى:

أجازى بالحكم أعدائى..

والسبى على رؤوس الأعداء

افرحى به أيتها السموات

ولتسجد له جميع ملائكة الله

لأنه ينتقم لدم بنيه ويكافئ بالنقمة الأعداء والمبغضين

يجازى ويطهر الرب أرض شعبه.

لقد انتقم الرب لدم بنيه، عندما سفك دمه الطاهر، وكافأ بالنقمة أعداءه، فى يوم النقمة، يوم الصليب، إذ سحق الشيطان وفرحت السماوات وسجدت له جميع الملائكة إذ جلس على عرش ملكه «ملك على خشبة» مالكاً على قلوب الذين قبلوه.

صلاة حنة أم صموئيل (صلاة الإيمان)

كانت حنة أم صموئيل عاقراً، أى ميتة، بحسب طبيعة جسدها الذى لا يستطيع أن ينجب. ولكنها حصلت على حياة وأخذت قدرة على إنشاء نسل، وأُعتبر لها هذا عربون قيامة، وبالإيمان بكلمة قالها رئيس الكهنة، سُمع لها واستجاب الإله القادر على الإقامة من الأموات أيضاً. ولكن حنة نالت هذه النعمة بالصلاة والتضرع وسكب النفس بمرارة قدام الله فتحول حزنها إلى فرح.

هذه عينة للنفوس التى نالت عربون القيامة، وسجل الروح تسبحتها كنموذج حى لقوة الإيمان وثقة الرجاء بالله.

صلاة حبقوق النبى (صلاة الانتظار)

بدأ حبقوق النبى نبوته ورؤياه بسؤاله الشهير الذى كان لسان حال كل إنسان فى العهد القديم بسبب الخطية الحاجزة، وبسبب سقوط الإنسان وانحجاب وجه الله.. هذه الخصومة التى طالما عذَّبت أنفس الصديقين فى أجيال العهد القديم، لذلك بدأ حبقوق بلسان الجميع يقول فى مطلع نبوته: «حَتَّى مَتَى يَا رَبُّ أَدْعُو وَأَنْتَ لاَ تَسْمَعُ؟ أَصْرُخُ إِلَيْكَ مِنَ الظُّلْمِ وَأَنْتَ لاَ تُخَلِّصُ؟».

ولكنه كنبى القدير، صاحب عين ورؤيا، وبصيرة روحية يقول: «عَلَى مَرْصَدِي أَقِفُ، وَعَلَى الْحِصْنِ أَنْتَصِبُ، وَأُرَاقِبُ لأَرَى مَاذَا يَقُولُ لِي، وَمَاذَا أُجِيبُ عَنْ شَكْوَايَ» (٢ : ١). فيعلن له أن البار بالإيمان يحيا (ص٢) وأن الأرض ستمتلئ من معرفة مجد الرب (ص ٢). فيرتفع قلبه بتسبيح الصلاة والرجاء بقيامة الرب وقوة محبته المخلصة.

وبمثل هذه الصلاة يقال فى هذه الليلة إأن الرب سمع وأصغى واستجاب. وعندما أتى الزمان أكمل الرب قوله وأحيا عمله فى وسط السنين.

صلاة يونان النبى (صلاة النجاة)

«كَمَا كَانَ يُونَانُ فِي بَطْنِ الْحُوتِ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ وَثَلاَثَ لَيَال، هكَذَا يَكُونُ ابْنُ الإِنْسَانِ فِي قَلْب الأَرْضِ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ وَثَلاَثَ لَيَال» (مت ١٢ : ٤٠).

وقصة يونان هى قصة الموت والقيامة. وكرازة يونان المُخلَّصة التى خلصت مدينة نينوى من الموت والهلاك، كانت كرازة من قام من الأموات. وصلاة يونان هى صلاة البشرية كلها وهى فى قبضة الموت. ولكنها صلاة كلها رجاء فى الحياة والخلاص، ونظر هيكل قدس الله.

صرخات يونان فى بطن الحوت أيضاً هى بعينها صرخات النفوس المقبوض عليها فى الجحيم «فلتصعد من الفساد حياتي أيها الرب إلهي».

صلاة حزقيا الملك (صلاة الشفاء)

مرض حزقيا للموت، وأرسل الرب إليه إشعياء النبى يقول له: «هكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ أَوْصِ بَيْتَكَ لأَنَّكَ تَمُوتُ وَلاَ تَعِيشُ» (إش ٣٨ : ١). فحوّل وجهه إلى الحائط وبكى متوسلاً بهذه الصلاة متضعاً إلى التراب. فعاد الرب وأرسل إليه النبى ليبشره بأنه أضاف إلى عمره ١٥ سنة.

فهى قصة شفاء من ظل الموت.. وزيادة العمر. المسيح أضاف إلى أعمارنا الزمنية.. أبديته الخالدة، حُسب إحسان من الله أن يُضاف إلى عمره ١٥ سنة، ماذا نقارن هنا بما صنعه المسيح إذ أعطانا حياة أبدية، بل أعطانا حياته الأبدية!

هى أيضاً قصة قيامة، وعربون الحياة ناله حزقيا الملك بالصلاة والدموع والتضرع والاتضاع فسمع له وحُسب مع زمرة المُخلَّصين.

صلاة منسى الملك (صلاة التوبة والرجوع)

مقدمة:

منسى الملك هو ابن حزقيا الملك الذى أرضى الرب فى حياته وأعاد إسرائيل إلى الرب إلهه وعمل الفصح كما لم يُعمل من أيام سليمان بن داود، وأرجع لبيت الرب والكهنة واللاويين مركزهم فى قلب أورشليم وشعب الله.

أما منسى فلما ملك على يهوذا، عمل الشر فى عينى الرب وأرجع إسرائيل عن الرب إلهه، وبنى المرتفعات وعبد الأوثان وجند السماء، وعمل تماثيل الأوثان فى بيت الرب. وتفاءل وعاف واستخدم الجان وأصحاب التوابع، وكل ما هو غير مستقيم سار فيه. وانحرف الشعب فى أيامه أكثر من الأمم الوثنيين (أخبار الأيام الثانى ص ٣٣).

فغضب عليه الرب وأرسل إليه رؤساء جيش ملك آشور، فأخذوا منسى بخزامة وقيدوه بسلاسل نحاس وذهبوا به إلى بابل، ولما تضايق طلب وجه الرب إلهه وتواضع جداً أمام إله آبائه. وصلى إليه فاستجاب له وسمع تضرعه ورده إلى أورشليم إلى مملكته، فعلم منسى أن الرب هو الله.

لقد أبرز منسى الملك فى صلاته قوة التوبة والرجوع إلى الله كأنها فعلاً قيامة من الأموات. وقد اقترب بالصلاة لمعرفة طبيعة الله الحنون، طويل الروح، كثير الرحمة، متأسف على شر البشر.

ثم أدرك صلاح الله وكثرة رحمته. وكيف أعطى الله التوبة للخلاص والرحمة فى الرجوع. ثم ما أجمل ما نطق بفم هذا الملك البار، أن باب التوبة والرجوع جُعل خصيصاً من أجل الخطاة وليس من أجل الأبرار. أى أنه يُظهر حاجة الخطاة للمسيح أكثر من الصديق، كقول الرب يسوع نفسه «لاَ يَحْتَاجُ الأَصِحَّاءُ إِلَى طَبِيبٍ بَلِ الْمَرْضَى. لَمْ آتِ لأَدْعُوَ أَبْرَارًا بَلْ خُطَاةً إِلَى التَّوْبَةِ» (مر ٢ : ١٧).

وفى اتضاع عجيب يضع نفسه أول الخطاة، كمثل باقى القديسين الذين رأوا أنفسهم فى نور الحق الإلهى، واكتشفوا عوزهم وحاجتهم إلى الخلاص أكثر من كل أحد.

وتعبيرات الصلاة ولو أنها قيلت فى العهد القديم إلا أنها إنجيلية، كلها نور واستعلان وقوة ورجاء. يكفى أن نتأمل القول: «أنت إله التائبين». حقاً قال المرنم: «الرب يقيم الساقطين، الرب يحل المقيدين».

هذه عينة أخرى عجيبة، نالت بالرجاء، قوة القيامة. ولها من المسيح الإله ذراعه ليقيمها إذ قد لصقت بالتراب بالتوبة والانكسار والاتضاع القلبى. فردّه مرة أخرى من السبى إلى المملكة.

وفى هذه الليلة هى تمتع مثل هذه النفوس فى المسيح إذ تنال قوة القيامة فى مخلصنا الصالح رجاء الدهور كلها.

تسابيح إشعياء النبى (تسبحة الرجاء)

إشعياء نبى الرجاء – النبى الإنجيلى – صاحب البصيرة الثاقبة، سبق أن رأى بعين النبوة تدابير الخلاص وكتب بالروح أشهى النبوات وأدقها، فكلمات إشعياء عن المسيح المتألم بأوصاف غاية فى العمق، والتعبير عن الآلام وصمت المسيح مثل شاه تساق إلى الذبح، وجراحات المسيح التى بها شُفينا وتأديب سلامنا الذى صار عليه، يقصها إشعياء كمن عاصر الصليب وتبع المخلص المصلوب فى أصحاح ٥٣ من نبوات وزمن المسيا. وينابيع مياه الخلاص والفرح الأبدى ونهر سلام ينابيع الروح القدس، ومواعيد المسيح المبارك لكنيسته المجيدة، وعهد وسلامه الذى لا يتزعزع بل تتزعزع دونه الجبال والآكام.. وأشياء يعسر حصرها.. كلها لقنّها الروح القدس الناطق فى الأنبياء، لقنها لإشعياء النبى فنطق بها ودوّنها بالروح من أجل خلاصنا.

وقد اختارت الكنيسة فى هذه الليلة ثلاث عينات من رفع القلب بالصلاة التى صلاّها إشعياء، معبِّرة عن الرجاء فى شخص المخلص وشوق الأرواح القديسة لأزمنة الخلاص، كمن يترجى إشراق الصباح.

صلاة إشعياء النبى الأولى:

من الليل روحى تبكر إليك يا الله.. أوامرك نور على الأرض

أيها الرب إلهنا أعطنا سلامك لأنك أعطيتنا كل شئ

أيها الرب إلهنا اقتننا يارب وباسمك نُسمَّى

ذات الكلمات التى نطق بها المرنم، هى أرواح الصديقين التى لم تخضع لروح الظلمة، بل كانت تشتهى أن يشرق لها النور الحقيقى الذى هو المسيح يسوع ربنا. وهو يتوسل إلى الله من أجل السلام (الذى صنعه المسيح بالصليب قاتلاً العداوة به).

ما أعجب القول الذى يقوله إشعياء: «اقتننا لك».. لقد بيعت البشرية، كلها ساقطة تحت سلطان الظلمة، والآن عندما غلب المسيح: اشترانا، رد سبينا، اقتنانا، صرنا ملكاً له.

أما من جهة الاحتياج للخلاص، فما أبدع ما عبّر به الروح فى أحشاء إشعيا فنطق بإحكام واصفاً حال بنى البشر وعجزهم المطلق عن عمل الخلاص «حبلنا، طلقنا وولدنا ريحاً». فمهما عصرت البشرية نفسها وعانت حتى آلام مخاض لعلها تنجو، ولكن هيهات، فلا خلاص ولا نجاة إلا بشخص المسيح مخلص العالم.

لذلك يعود النبى إشعياء فى صلاته فيقول: إن بشرى الخلاص والكرازة بالمسيح هى هى القيامة من الأموات «تقوم الأموات ويقوم من فى القبور ويفزع الذين على الأرض لأن **الفداء الذى من قبلك** هو شفاء لهم».

تسبحة إشعياء النبى الثانية:

هذه تسبحة أرواح الصديقين المظلومين والمحبوسين، والمترجين الخلاص.

«أيها الرب أمجدك وأسبح اسمك لأنك صنعت أموراً عجيبة، هدمت ارتفاع المتكبر، سحقت الشيطان، ووضعت تشامخ الخطية، كسرت شوكتها، دُست مملكة الموت. لك المجد يا ملك الحياة. لأجل ذلك يباركك الشعب المسكين، ومدن الناس المظلومين تباركك.. أرواح البشر المظلومة تباركك».

أما ما يفوق العقل، فهو قول إشعياء: «ابتلع الموت» وهو أيضاً ما ردده هوشع النبى: «ابتلع الموت إلى غلبة.. أين شوكتك يا موت» وأيضاً «ينزع الله كل دمعة من كل وجه». لقد هرب الحزن ووجع القلب وحوَّل المسيح (بموته ونزوله إلى الجحيم ليفدى نفوس عبيده، وبقيامته المجيدة) حوَّل حزننا إلى فرح، ويأسنا إلى رجاء لا يُخزى، ومسح كل دمعة من على كل وجه.

وهذه التسبحة تدور حول هدم أسوار الخطية، وأسوار ارتفاع وكبرياء الشيطان وتجبره وسيادته ومملكة الظلم والظلمة.

تسبحة إشعياء النبى الثالثة (صلاة الاعتزاز بالخلاص):

هى فى الواقع تكملة للتسبحة الثانية، أو الوجه الإيجابى لعمل المسيح. فإن كانت التسبحة السابقة يتغنى فيها إشعياء بهدم حصون الشيطان وسحقه إلى التراب وإذلاله وزوال سلطانه، فهنا يترنم

أشعياء بالمدينة الحصينة، أورشليم الجديدة، مسكن الخلاص والسلام، أى كنيسة الله وملكوته التى اقتناها بدمه.

فى ذلك اليوم يسبحون هذا التسبيح قائلين: «لنا مدينة حصينة».. أسوارها هى خلاص المسيح، أحاطها كحدقة العين، على أسوارك يا أورشليم أقمت حراساً لا يسكتون كل النهار ولا كل الليل.. أسوارها تسابيح الخلاص مصنوعة بدم الحمل الذى قطّر على أبواب الشعب فى القديم فعبر المهلك لما رآها. فنفوس الأبرار تتحصن فى حصن الكنيسة كما فى حضن الآب لا يجسر أحد أن يقترب إليها. أما مملكة الشيطان المنهدمة فتدوسها أرجل الودعاء والمساكين بالروح.. بسلطان المسيح «هَا أَنَا أُعْطِيكُمْ سُلْطَانًا لِتَدُوسُوا الْحَيَّاتِ وَالْعَقَارِبَ وَكُلَّ قُوَّةِ الْعَدُوِّ» (لو ١٠ : ١٩).

إلى اسمك وإلى ذكرك شهوة النفس.. اسم الخلاص، اسم يسوع المسيح هو مشتهى الأجيال وغاية نفوس الأبرار والصديقين فى كل جيل.

تسبحة إرميا النبى (صلاة الدموع)

لقد حمل إرميا النبى أوجاع الشعب المنهوب فى العهد القديم، وتوجع بها حتى إلى أعماق نفسه، حتى قال: «قَلْبِي ، قَلْبِي! تُوجِعُنِي جُدْرَانُ قَلْبِي. يَئِنُّ فِيَّ قَلْبِي» (٤ : ١٩). وبكى إرميا بدموع غزيرة قتلى الخطية وتمنى لو كانت رأسه ماء وعيناه ينبوع دموع ليبكى ليلاً ونهاراً «قَتْلَى بِنْتِ شَعْبِي». وهكذا صار إرميا النبى باكياً عوضاً عن الباكين ومتألماً بدلاً من المتألمين، الذين ما بكوا وما تألموا ولكن كمن لهم عيون لا يبصرون ولهم آذان ولا يسمعون ولا يفهمون.

ولكن فى كل هذه الأيام والدموع كان إرميا نبى للرجاء ناظراً ومتوقعاً وباحثاً عن وقت الخلاص الذى كان يزكيه الروح كلما زادت الآلام ويظهره فى الضمير كلما حبكت الظلمة الخارجية، كبزوغ الفجر بعد حلكة الظلام. فهو بتوسل الباكى ودالة الدموع فى عينيه يقول لله: «هَلْ كُلَّ الرَّفْضِ رَفَضْتَنَا؟» (٥ : ٢١)، والجواب التلقائى ببرهان الروح فى القلب يقول: حاشا، بل فإنه أمين فى مواعيده صادق فى كلمته وأن مجيئه أكيد وخلاصه سيستعلن فى حينه. بل فى عتاب الأخصاء يقول لماذا تنسانا إلى الأبد وتتركنا طول الأيام، أليس هذا هو صوت الذين كانوا فى انتظار المخلص وهم فى رباط الظلمة؟ أليس

هذا هو عينه كلام صلاة المرتل «إلى متى يا رب تنسانى إلى الانفضاء؟ حتى متى تصرف وجهك عنى إلى الدهر؟ إلى متى أردد هذه الأوجاع فى قلبى النهار كله.. قم يا رب خلصنى يا إلهى».

نرى أن الروح واحد وأن الصراخ فى كل أجيال الدهور واحد وأن الشوق إلى الخلاص والحنين إليه صنعه الروح الواحد فى كل أبرار جيل فجيل. وها الرب يفدى نفوس عبيده بقدرة صليبه وقوة قيامته منقذاً كل الذين صار لهم هذا الرجاء الذى لا يُخزى.

تسبحة باروخ النبى (صلاة التوسل للرجوع من السبى)

الآية التى صنعها الرب للخلاص فى أيام موسى هى آية الدهور كلها حتى فى السماء فإن جموع المفديين يترنمون بتسبحة موسى عبد الرب التى سبح بها فى يوم الخلاص المشهور. فالأنبياء عاشوا يجترون بفرح صنيع الرب ويتوقعون خلاصه كما فى القديم. فإشعياء يستعطف الرب قائلاً: «اِسْتَيْقِظِي، اسْتَيْقِظِي! الْبَسِي قُوَّةً يَا ذِرَاعَ الرَّبِّ! أَلَسْتِ أَنْتِ هِيَ الْمُنَشِّفَةَ الْبَحْرَ» (٥١ : ٩ ، ١٠). هى هى بعينها، بذات القوة والجبروت، يسوع المسيح هو هو أمس واليوم وإلى الأبد.

وها باروخ النبى فى تسبحته وكأن نفسه فى هذه الليلة ترفع ذات الصلاة التى للخلاص متوجهة نحو المسيح القادر، إله إسرائيل الذى أخرج شعبه من أرض مصر بيد قوية بآيات وعجائب وقوة عظيمة وذراع رفيعة.

فمن جهتنا أخطأنا وعملنا نفاقاً وظلمنا.. من نحونا فنحن التراب، كما كان وهكذا كائن.. الإنسان الساقط هو هو بذات الضعف والعجز ساقط تحت نير الخطايا «لَيْسَ مَنْ يَعْمَلُ صَلاَحًا لَيْسَ وَلاَ وَاحِدٌ» (رو ٣ : ١٢). فماذا يتوقع من طبيعة ساقطة، ماذا تستطيع أن تقدم لله سوى ثمر المرارة.

أما من جهة الله فهو المخلص بيد قوية وذراع رفيعة كما فى أيام موسى، كما فى أيام القدم، كذلك بالأكثر الآن.

وصلاة باروخ زمنياً كانت من أجل نجاة المسبيين، ولكنها فى بُعدها النبوى كانت من أجل أسرى الرجاء المسبيين، ليس فى بابل بل فى سجن الجحيم الذين كانوا ينتظرون المسيا بصبر ويتوقعون خلاصه بسكوت.

تسبحة إيليا النبى (صلاة الغيرة النارية وصلاة الذبيحة والتوبة)

إيليا.. هذا النبى الغيور النارى، لم تفارق النار المتأججة حياته بل رافقت مسيرته كل الطرق، وهى نار الله، نار الروح القدس.. إلهنا نار آكلة، فهى من جهة تحرق الشر وتبيد الأشرار (كما أكلت قائدى الخمسين وجنودهما الذين أرادوا الشر بإيليا وتقدموا إليه بكبرياء). ومن جهة أخرى هى نار القبول والرضى عندما حلت على الذبيحة التى بالماء. وأخيراً صعد إيليا فى مركبات النار إلى السماء.

وتسبحة إيليا وصلاته عند إصعاد الذبيحة هى صلاة قصيرة ولكنها نارية جداً، من عمق القلب، فى موقف حرج جداً، وقاطع جداً. فنار الغيرة الإلهية المتأججة فى قلب إيليا دفعته أن يقف موقف الشهادة لله ضد فساد الجيل كله، وانحراف الملك وراء إيزابل الشريرة، وأنبياء البعل كثيرى العدد (٨٥٠).

والموقف كله لحساب الله، ليعلم الجميع أن الرب هو الإله الحقيقى وحده. والموقف أيضاً لحساب الإنسان الزائغ لأنها ساعة رجوع إلى الله وتوبة «حَوَّلْتَ قُلُوبَهُمْ رُجُوعًا» (١مل ١٨ : ٣٧).

وهذه الصلاة التى استجابها الرب على الفور وقبول الذبيحة الطاهرة بنزول النار من السماء. كل هذا كمل فى المسيح يسوع حمل الله، الذبيحة الحقيقية التى رفعت الغضب، واحتمل العار مستهيناً بالخزى. وحالما نزلت النار على الذبيحة، علامة القبول والرضى، وانهزمت قوات الشر وقُتل أنبياء البعل عابدى الوثن، انتهت للحال أيام الغضب وسنين الجفاف وأزمنة الجوع.. بذبيحة المسيح انقضى زمان الغضب والجفاف والجوع الروحى، وهطلت أمطار النعمة من السماء غزيرة كسكب الروح القدس الذى يغنى ويروى، يُشبع ويُخصب.

فلما رأى الشعب سقطوا على وجوههم وقالوا: «الرَّبُّ هُوَ اللهُ! الرَّبُّ هُوَ اللهُ!». ما أروعك أيتها الصلاة الحارة، وما أسعدنا نحن المؤمنين بذبيحة الصليب وغنى النعمة المذخرة لنا فيه.

لا رجوع إلى الله إلا بصليب ربنا يسوع المسيح.. ولا استحقاق للنعمة إلا بالمسيح يسوع ربنا.

صلاة داود النبى (صلاة التقدمة والعطاء)

حياة داود النبى كلها صلاة «أَمَّا أَنَا فَصَلاَةٌ» (مز ١٠٩ : ٤)، «سَبْعَ مَرَّاتٍ فِي النَّهَارِ سَبَّحْتُكَ عَلَى أَحْكَامِ عَدْلِكَ» (مز ١١٤ : ١٦٤)، «فِي مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ أَقُومُ لأَحْمَدَكَ عَلَى أَحْكَامِ بِرِّكَ (نهضت لأشكرك)» (مز ١١٩ : ٦٢)، «لَوْ لَمْ تَكُنْ شَرِيعَتُكَ لَذَّتِي، لَهَلَكْتُ حِينَئِذٍ فِي مَذَلَّتِي» (مز ١١٩ : ٩٢).

ولكن الكنيسة فى هذه الليلة اختارت جزء من الصلاة التى صلاّها داود النبى فى نهاية حياته عندما جلس أمام الله يشكره ويعدد أعمال الله العظيمة معه ويقدم لله تقدمة شعبه لبناء الهيكل. وهذه الصلاة نموذج عالى للشكر والتسبيح، وهى المنهج الروحانى لصلاة تقديم العطايا لله وتقريب قربان السرور.

فداود النبى الملك، جلس أمام الله فى اتضاع عجيب يعترف أمام الله بمجده وإحساناته، ويعترف بضعفه وأن الرب اختاره من وراء مربض الغنم. وأن الخير كله هو مصدره. وإن كان يعطى أو يقدم أو ينتدب، «...لأَنَّ مِنْكَ الْجَمِيعَ وَمِنْ يَدِكَ أَعْطَيْنَاكَ... لَكَ كُلَّ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ... وَالْغِنَى وَالْكَرَامَةُ مِنْ لَدُنْكَ» (١أخ ٢٩ : ١٧).

فالكنيسة توجه النظر الآن.. نحو طلبة التقدمة كيف تكون مقبولة وكيف تحوز رضى الله ويقبل من أيدينا عندما نقدم. هى عينة من الطلبات التى سرَّت الله فى العهد القديم وسجلها الروح كصلاة نالت اعتباراً عالياً أمام القدير وقَبِل أن يبُنى البيت من هذه التقدمات التى هى رمز للمسكن الحقيقى الذى نصبه الرب لا إنسان، لأن الهيكل الجديد الذى أقامه المسيح هو جسده، وهو مهيأ لا من عطايا مادية أو مواد بناء بل من حجارة حية روحية مبنية على أساس الرسل والأنبياء ويسوع نفسه حجر الزاوية. وعندما نقدم هذه الحجارة للبناء، نقدمها لله فى يوم العماد ونصلى قائلين: «الذين قدموا لك بنيهم اقبلهم إليك على مذبحك الناطق السمائى» فيقبل الرب ويستجيب لمجد اسمه وبنيان كنيسته المقدسة.

صلاة الملك سليمان (صلاة التكريس)

هذه الصلاة المستجابة التى دخلت مقادس القدير، حينما وقف سليمان وبسط يديه على مثال الصليب، لتدشين الهيكل الذى بناه بحسب التدبير الإلهى بتفاصيل ألهمها الروح القدس لداود بسر لا ينطق به. عبَّر عنه داود النبى حينما سلم مثال الهيكل ورسومه وتفاصيل مبانيه وأوانى الخدمة، وقال لسليمان: «قَدْ أَفْهَمَنِي الرَّبُّ كُلَّ ذلِكَ بِالْكِتَابَةِ بِيَدِهِ عَلَيَّ، أَيْ كُلَّ أَشْغَالِ الْمِثَالِ» (١ أخ ٢٨ : ١٩). الهيكل روحانى فى كل شئ، وبه تكمن كل تفاصيل الكنيسة تحت الشكل المادى الرمز والمثال وأشباه السماويات وظلها.

الحق فى الهيكل الجديد، هو جسد المسيح، والكنيسة عمود الحق وقاعدته.

صلاة التكريس هذه هى بمثابة تخصيص هذا الهيكل لله. هى دخول فى عهد بين الإنسان والله، إن الله يسكن مجده فى البيت الذى دُعى باسمه. وأن الإنسان يستمد خيرات كثيرة إذا التجأ إلى الرب إلهه ناظراً إلى هذا البيت.

إن البيت بيت صلاة، بخور وذبائح، مواسم وأعياد، كلها مقدمة لله، هو مكان الفرح الدائم والمحرقة الدائمة والبخور الدائم صباحاً ومساءاً، والخبز الجديد كل يوم، خبز الوجوه. ولكن شرط واحد وُضع تجاه الإنسان، هو عهد قطعه الرب مع داود بقسم، أقسم الرب «إِنْ كَانَ بَنُوكَ إِنَّماَ يَحْفَظُونَ طُرُقَهُمْ حَتَّى يَسِيرُوا أَمَامِي كَمَا سِرْتَ أَنْتَ أَمَامِي» (١م ٨ : ٢٥).. حفظ الوصايا، وحفظ طريق الرب مستقيماً.

والصلاة فيها اتضاع كثير، وإدراك عجيب لله المنزّه عن السكنى فى مصنوعات الأيادى. وهى تلقى ضوءاً على اتضاع القدير كيف يتنازل حتى إلى حقارتنا، بل أن نصير نحن مسكنه، بل اتحد بمسكننا الترابى وجعله واحداً مع لاهوته. استجابة الصلاة كانت تأكيداً من نحو الله أنه يُسرّ بأن يسكن فينا، ويحل بيننا، ونصير نحن بالحقيقة هيكله.

لقد استجاب المسيح المصلوب والنازل إلى الجحيم والقائم من الأموات.. استجاب صلاة سليمان التى يصليها فى هذه الليلة. فدشن هيكله بسكب دمه، وأقام الحجارة المتفرقة، لتصير بقيامته حجارة

حية، فى هيكله السماوى، والرسل الأطهار صاروا أعمدة الإيمان، والقديسة الطاهرة مريم كشفت ألغاز قدس الأقداس المصنوع بيد. وكل الذبائح التى قدمها سليمان للتدشين وجدت تحقيقها وكمال معناها وقوتها فى ذبيحة المسيح. ورش الدم للتقديس، البيت والأوانى والكتب أيضاً، والثياب، صار رش دم يسوع الذى يتكلم أفضل من دم هابيل.

كانت الاستجابة المؤقتة – قديماً – بنزول نار لقبول الذبيحة، ثم امتلأ البيت دخاناً حتى لم يستطع الكهنة أن يكملوا الخدمة. وها كمال التحقيق نعيشه فى الكنيسة اليوم، لأن فصحنا ذُبح عنا، وقبِل نار وأوجاع الصليب، وأما مجد قيامته فلم يحصل فى دخان أو سحاب، بل بنور حياة أبدية وإشراق فجر القيامة الذى لا يغرب.

صلاة دانيال النبى (صلاة الاعتراف والتضرع)

«سَهِرَ ٱلرَّبُّ عَلَى ٱلشَّرِّ وَجَلَبَهُ عَلَيْنَا، لِأَنَّ ٱلرَّبَّ إِلَهَنَا بَارٌّ فِي كُلِّ أَعْمَالِهِ ٱلَّتِي عَمِلَهَا إِذْ لَمْ نَسْمَعْ صَوْتَهُ. وَٱلْآنَ أَيُّهَا ٱلسَّيِّدُ إِلَهُنَا، ٱلَّذِي أَخْرَجْتَ شَعْبَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ بِيَدٍ قَوِيَّةٍ، وَجَعَلْتَ لِنَفْسِكَ ٱسْمًا كَمَا هُوَ هَذَا ٱلْيَوْمَ، قَدْ أَخْطَأْنَا، عَمِلْنَا شَرًّا. يَا سَيِّدُ، حَسَبَ كُلِّ رَحْمَتِكَ ٱصْرِفْ سَخَطَكَ وَغَضَبَكَ عَنْ مَدِينَتِكَ أُورُشَلِيمَ جَبَلِ قُدْسِكَ، إِذْ لِخَطَايَانَا وَلِآثَامِ آبَائِنَا صَارَتْ أُورُشَلِيمُ وَشَعْبُكَ عَارًا عِنْدَ جَمِيعِ ٱلَّذِينَ حَوْلَنَا. فَٱسْمَعِ ٱلْآنَ يَا إِلَهَنَا صَلَاةَ عَبْدِكَ وَتَضَرُّعَاتِهِ، وَأَضِئْ بِوَجْهِكَ عَلَى مَقْدِسِكَ ٱلْخَرِبِ مِنْ أَجْلِ ٱلسَّيِّدِ. أَمِلْ أُذُنَكَ يَا إِلَهِي وَٱسْمَعْ. اِفْتَحْ عَيْنَيْكَ وَٱنْظُرْ خِرَبَنَا وَٱلْمَدِينَةَ ٱلَّتِي دُعِيَ ٱسْمُكَ عَلَيْهَا، لِأَنَّهُ لَا لِأَجْلِ بِرِّنَا نَطْرَحُ تَضَرُّعَاتِنَا أَمَامَ وَجْهِكَ، بَلْ لِأَجْلِ مَرَاحِمِكَ ٱلْعَظِيمَةِ. يَا سَيِّدُ ٱسْمَعْ. يَا سَيِّدُ ٱغْفِرْ. يَا سَيِّدُ أَصْغِ وَٱصْنَعْ. لَا تُؤَخِّرْ مِنْ أَجْلِ نَفْسِكَ يَا إِلَهِي، لِأَنَّ ٱسْمَكَ دُعِيَ عَلَى مَدِينَتِكَ وَعَلَى شَعْبِكَ» (دا ٩ : ١٤ – ١٩).

«أَيُّهَا الرَّبُّ الإِلهُ الْعَظِيمُ الْمَهُوبُ، حَافِظَ الْعَهْدِ وَالرَّحْمَةِ لِمُحِبِّيهِ وَحَافِظِي وَصَايَاهُ. أَخْطَأْنَا وَأَثِمْنَا وَعَمِلْنَا الشَّرَّ، وَتَمَرَّدْنَا وَحِدْنَا عَنْ وَصَايَاكَ وَعَنْ أَحْكَامِكَ. لَكَ يَا سَيِّدُ الْبِرُّ، أَمَّا لَنَا فَخِزْيُ الْوُجُوهِ»

هذا دانيال النبى، نبى أرض السبى، الذى لم تخضع روحه للسبى ولا إلى لحظة. بل كان فى أرض السبى بجسده بينما روحه تحلق نحو أورشليم ناظرة إليها بعين الإيمان خلال كوه عُليّة. وبالصلاة الحارة، خلال ساعات النهار والليل.

هذا دانيال الذى احتواه جُب الأسود، ولكن لم تكن للأسود قوة للضرر والإيذاء.